محمد أحمد جاد المولى بك

إنصاف عثمان



ملتزم طبعه ونشره
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد

فإن الأمة الإسلامية تنفلت الآن من عُقُلها ، يزحف بعضها ويخطو بعضها شطر المثل الأعلى للأمم الحية الراقيـة ذات العزازة والسلطان بعد ما طال واستطال سباتها ، حتى لقد زعم بعض أعدائها أنها لن تفيق .

وهى فى يقظتها ونهضتها تتأسّى بسير السادة الأبطال من أسلافها ، وروادُها إلى مثلها الأعلى يَجْلون أمامها السامى المجيد من تاريخها ، يوقظون به حميتها ، ويبتعثون نخوتها ، ويحددون بالصوى والأعلام وجهتها وغايتها ، لتستبين الأمة جدارتها بالزعامة والصدارة وكفايتها

وإذا كان هدف الذين أرخوا للسيرة وغيرها فيما مضى الدراسةَ والتسجيل وإحقاق الحق فإن هدف الذين يؤرخون الآن البحثُ والتعليل والتحليل والنقد ثم إيقاظ النفوس الهامدة ، وبعث الهمم الخامدة . وأى سمو وكمال وبطولة يدانى سمو الرسول عليه الصلاة والسلام وكماله وبطولته ؟

ثم أية عظمة نفسية وعملية تلك التى تتميز فى حياة خلفائه وصحابته ؟ ؟

لهذا كان من فضل هذا العصر ومن الخير له أيضاً أن تزاحمت الأقلام فى تحلية هذا التاريخ ، فألفنا منذ خمس عشرة سنة كتاب

« محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل » وتتابعت الكتب فى المصطفى وخلفائه وغيرهم من مشهورى الإسلام . وإنها ليقظة لها ما لها ، بارك الله فيها وعَضَد آلها .

وكانت وزارة المعارف قد فكرت منذ سنوات فى وضع كتاب جامع لأبطال الإسلام وخصتنا بعثمان بن عفان رضى الله عنه ، فدرسناه ثم نامت الفكرة فرأينا أن نبسط دراستنا فى كتاب مستقل هو هذا الكتاب .

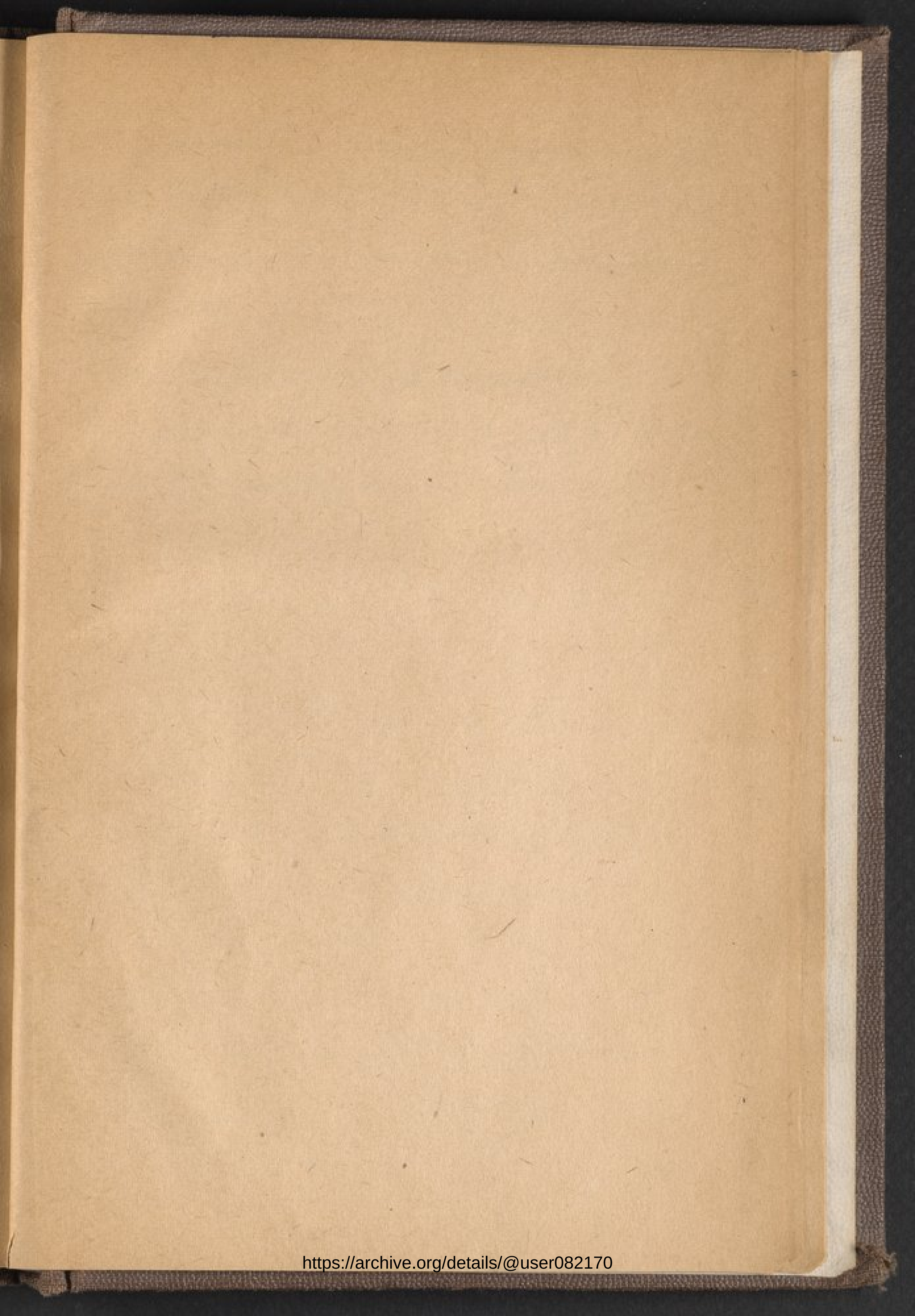
درسنا تاريخ عثمان وعصره والثورة عليه دراسة الحذر من الأخبار المدسوسة ، اليقظ لمواطن العبرة ، المرجع كل حدث إلى بواعثه الأصيلة وإن رانت عليها الشبهات .

ولم نكتف بما قال المؤرخون ، بل مددنا بصرنا إلى أبعد من ذلك ، فحللنا شخصيته وبينا ما لها من صلة بالثورة عليه ، ودرسنا حال المسلمين ، وقد نعموا بالراحة والثراء وانساحوا فى الأصقاع يخالطون الأعاجم ويصهرون إليهم ويتخلقون بعاداتهم ، وحال قريش وما انتابها من تفرق وتنازع على الرياسة ، وبينا صلة ذلك بالتجنى على الخليفة ، وجلونا الفتنة التى أرثها فى الأمصار أعداء عثمان وأعداء الإسلام ، ونخلنا ذلك كله وصفيناه ، واستخلصنا منه الأسباب الصريحة للفتنة .

ولم نغفل أن نعرض لما أخذ على عثمان ، ولا أن ننتصف له حيث يستحق الإنصاف .

ومن حق عثمان أن تخصص لدراسته ودراسة عصره عشرات الكتب ، فإنه الخليفة المهضوم الحق ، المظلوم فى الحكم عليه ، على ما له من سابقة وفضل وإصلاحات ، وعصره عصر انتقال واضطراب وثورات سياسية واجتماعية .

ونحن وإن بالغنا فى الإحاطة وتوقى الزلل عرضة للتقصير ، ولكننا اجتهدنا رأينا ، فنرجو أن نكون قد وفقنا لإبراز صورة واضحة لهذه الحقبة من تاريخ المسلمين ففيها عظات وعبر . والله المستعان .



تمهيد

إلى محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين كانوا معه قد وجه الله تعالى الخطاب بقوله : « كنتمْ خير أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهَوْن عن المنكر وتؤمنون بالله » . وصحابته هم الذين كانوا أعداء فألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخوانا ، وهم الذين قاموا بعبء الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يخافون فى ذلك قوياً ولا يهابون سلطاناً ، قد استولى الإيمان على قلوبهم وملك حب الحق أعنة أفئدتهم فاتخذوه نبراساً لهم فى جميع أحوالهم .

وقد أحلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم محلا رفيعاً وأنزلهم منزلة سامية تنقطع دونها نياط الآمال ؛ إذ قال فيهم : « فوالذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم مثل احُد ذهباً ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه » . وليس يتسنى لإنسان مهما يبلغ من الفضل والكمال والتقوى أن ينال مثل تلك الدرجة ، فإنهم هم الذين اختصوا دون سواهم برؤية النبي حيًّا ، وهم الذين جاهدوا فى سبيل الله معه حق جهاده لإعلاء كلمته ، وبذلوا فى سبيل ذلك أموالهم ودماءهم طائعين مختارين لا يبتغون بذلك غير رضا الله سبحانه وتعالى ونشر دينه ، ومنهم المهاجرون الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم وتركوا ذويهم بين أيدى المشركين يذيقونهم ألوان العذاب احتفاظاً بدينهم ووفاء لعقيدتهم ، ومنهم الأنصار الذين آوَوا رسول الله وأصحابه وسوَّوا بينهم وبين أنفسهم فى أموالهم وفى كل ما ملكت أيديهم فى حدود الدين ،

واتخذوهم إخوانا لهم ، يرون لهم من الحقوق عليهم ما يرون لأنفسهم .
وتلك غاية لا تطيب لها نفس مهما يبلغ صاحبها من الكرم والوفاء
والتضحية ، ولكنها القلوب الطاهرة تفيض بالخير فى كل موطن ،
وهم الذين حملوا إلينا كتاب الله فكانوا أمناء صادقين فيما نقلوه ، فلم يتوجه
إليهم أحد بريبة ؛ وتلك يد يجب على كل مسلم أن يقابلها بعظيم الشكران ،
فجزاهم الله عنا خير الجزاء ؛ كما حملوا إلينا سنة رسوله فى أقواله وأفعاله غير
منقوصة ولا مدخولة . وهم الذين فسروا لنا ما خفى علينا من آى القرآن
الكريم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بأفعالهم وأقوالهم ، فتعلمنا
منهم التأويل وطرق الاستنباط والقياس ، وهم فى هذا كله لم يجاوز
واحد منهم الأمانة والصدق ؛ إذ كان لهم — رضوان الله عليهم — من
ذلك أوفر نصيب ، ومنهم تعلمنا الأمانة فى الدين والصدق فى اليقين .

وإنهم بما اتصفوا به من الكمالات وما وصلوا إليه من المنزلة الرفيعة
يعدون مظهراً من مظاهر القدرة الإلهية وكمال ابداع الله فى خلقه .

وإنهم بما أُثِرعنهم من أفعال مجيدة خلدها لهم التاريخ قد أرشدونا
إلى أن الدنيا دار جد وعمل وليست دار لهو وعبث ، وأن الفائز فى الحياة
من عمل لدنياه وآخرته . فإذا كان لمسلم أن يفخر فجدير به أن يفخر
بأولئك القوم ، وإذا أراد أن يدرك حظه من الدنيا والآخرة فجدير به أن
يقتفى آثارهم ويهتدى بهداهم . وليس يبلغ هذه المنزلة إلا من أُشرب
فى قلبه حبهم ، فحبهم باعث لنا على اقتفاء أثرهم .

لهذا كان حبهم مطلوباً شرعاً لأنه أقوى الأسباب إلى سلوك طريقهم

والعمل بسنتهم . وفى هذا يقول صلى الله عليه وسلم : « فمن أحبهم فبحبي أحبهم » فجعل محبتهم من محبته .

وأفضلهم العشرة المبشرون بالجنة وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد وأبو عبيدة بن الجراح .

ولقد أجمع أهل السنة على أنه يجب على كل مسلم تزكية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وإثبات العدالة لهم والثناء عليهم واجتناب الطعن فى سيرتهم ، وقد أثنى عليهم المولى جل شأنه ووفاهم حقهم من التكريم فى قوله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » ، وقوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس » . والآيتان وإن كانتا فى عموم الأمة ، خصوصيتان فى الصحابة ؛ لأنهم المخاطبون بهما وفيهما شهد الله لهم بالعدل ووصفهم به ، وهو قول لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وفى قوله تعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه » وقوله تعالى : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ، والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » . وقوله تعالى : « محمد رسول الله

والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجَّداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود، ذلك مثلهم فى التوراة، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما » .

وغير هذا من الآيات كثير . ولو ذهبت تتقصى آى القرآن الكريم لوجدت الكثير من مثل هذه الآيات يشهد لهم بالسبق وسمو المكانة والمنزلة الرفيعة فى الدنيا والآخرة .

ومن أجل هذا الذى قدمنا من الآيات وما ورد من الأحاديث فى شأنهم قال الأئمة بكفر الروافض؛ لأنهم يبغضون الصحابة . قال الإمام أبو زرعة الرازى وهو من أجلاء شيوخ المسلمين وعلمائهم : (إذا رأيت الرجل يتنقص أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه زنديق ؛ وذلك أن رسول الله حق والقرآن حق وما جاء به حق، وإنما أدى إلينا ذلك كلّه الصحابة ، فمن جرحهم فإنما أراد إبطال الكتاب والسنة ، فيكون الجرح به ألصق والحكم عليه بالزندقة والضلالة والكذب والفساد هو الأقوم) .

وقال ابن حزم : (الصحابة كلهم من أهل الجنة قطعاً . قال تعالى : « لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى » ، فقد وعدهم الله الحسنى وهى الجنة ، وأحلهم دار المقامة من فضله فكانوا أحق بها وأهلها .

الخلاف على عثمان بن عفان (رضى الله عنه)

انتخـــــابه

درج كثير من أهل العلم والورع من المسلمين منذ القدم أن ينهوا الناس عن الخوض فيما شجر بين الصحابة حتى وصل الأمر إلى حد المغالاة والحجر على العقول . ولكن العقل مهما يطل الزمن لا بد أن ينشط من عقاله ويقر الأمور فى نصابها ليوفى كل ذى حق حقه وإن كانت أحكامه فى بعض الأحيان مرة المذاق . وكيف لا يكون للعقل سلطانه وقد مكّن له فى القرآن ، وجعل الإيمان الصحيح ما كان عن اقتناع صادق ، والعقيدة السليمة التى يؤمَن عليها من الزيغ ما جاءت عن رأى حر وتمييز الهدى من الضلال : فالإسلام دين الحرية ، دين السياسة الرشيدة التى تجىء بعد التمحيص والنظر فى شئون الدين والدنيا ، فالدين لم يحجر على أحد أن يتناول بالنظر والحِجاج ما كان بين الصحابة من خلاف بالمعنى المعروف فى نقاش العقلاء ومصاولة أهل الأدب والمنطق الذين تنزهت ألسنتهم عن السفاهة والبذاء وفهموا روح الإسلام حق الفهم ، فهم يعرفون للمجاهدين فى تأسيس الاجتماع الإسلامى أقدارهم ، ويقدرون تضحياتهم فى أموالهم وأنفسهم ثم يسمحون لأنفسهم أن يتعرفوا البواعث الاجتماعيـة والسياسية التى نشأت عنها الأحداث ، وما كان لهذه الأحداث من خطر فى نظام الحياة الإسلامية أثّر فى العصور المتتابعة .

والحق أن هؤلاء العلماء كانوا جد حريصين على الوحدة الإسلامية ؛ إذ رأوا المغالاة فى تمجيد بعض الصحابة والزراية على بعض آخر مما مزق المسلمين شيعاً وأحزاباً حتى انتهى الخلاف إلى قلة الإنصاف ، وانصرف الناس عن الغرض الأسمى من رسالة الإسلام إلى الخلاف على أمور تناقلها التاريخ وليست من أصل الإسلام فى شىء ؛ ورأوا أن يُوَفّروا على الناس المناقشات العقيمة وضياع الوقت فى تأريث عوامل التفريق والأحكام الجائرة على هؤلاء بالهدى ، وأولئك بالضلال ، وأفتوا بإغلاق باب الشر وتوجيه الناس إلى ما ينفعهم فى الدين والدنيا ، كما أفتوا بإغلاق باب الاجتهاد فى الدين لمـا رأوا بعض الناس يستبيحون لأنفسهم الفتيا عن علم وعن جهل ؛ وكل ذلك كما بينا للحرص على سلامة الروح الإسلامية من عوامل الكيد والانقسام . فأما ونحن بسبيل التحقيق التاريخى ومحاولة التوصل إلى رأى موفق ، فما علينا من بأس فى بحث العوامل التى كانت وليدة البيئة والسياسات المتماوجة وانتهت إلى الثورة على الخليفة عثمان بن عفان ثم إلى تسور البيت عليه وقتله وهو متحصن بكتاب الله الكريم .

جبل النـاس أفراداً وجماعات على تنازع البقاء وتطورت الأمم تبعاً للنزاع القائم بين البشر . وقد دلنا التاريخ ولا يزال يدلنا على أن العقدة التى لم تحل بعد عَمَلِياً وإن حلت نظرياً هى سلام العالم والأمم لاختلاف وجوه المصالح وتباين العقول . ترى ذلك بين الافراد فى الأمة الواحدة ؛ لذلك تعددت الأحزاب وتفاقمت المشكلات ، وتراه واضحاً بين الدول ،

كل دولة تتهم الأخرى وتعمل على توسيع نفوذها . وهذا الصراع العقلى يشمل البشر أخياراً وأشراراً ولكل وجهة هو موليها .

ولذلك كانت أعباء الملوك وولاة الأمور فى كل أمة أفدحَ الأعباء ، وقسطهم فى العناء يوازى قسط أفراد الأمة مجتمعة ؛ فليس بدعاً أن نرى العرب يختلفون على ما جَدّ من أمور الإدارة والحكم والسياسة بعد أن جمع الدين كلمتهم ووحد غايتهم فنشروا الإسلام وفتحوا البلاد والأمصار . والعرب من أذكى الأمم وأشدها إحساساً وأنفة واعتزازاً بالنفس ، وأكثرها إسراعاً إلى نقد ما لا يرضيها مما له ارتباط بمصالحها .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلَّم الغنائم ففضل أناساً من أهل مكة على الأنصار من أهل المدينة الذين آوَوا المسلمين ونصروا الإسلام فغضب الأنصار فجمعهم النبى وقال لهم : (أوجدْتم يا معشر الأنصار فى لُعَاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتَرجعوا برسول الله إلى رحابكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الانصار وأبناء أبناء الأنصار) .

هكذا كان يعمل الرسول على إرضاء النفوس الثائرة وإطفاء ثائرة غضبها ، وليس بعد هذه الترضية ما هو أبرع منها وأجمل .

فلما توفى الرسول لم يكن قد نصب للمسلمين خليفة من بنى هاشم أو من قريش أو من العرب عامة ، ولم يقل قولاً صريحاً فيمن يولّى ، وترك لهم اختيار من يرضَون ، وكان فى ذلك حكمة جليلة حتى لا يكون

التمايز بين الطبقات أصلاً من أصول السياسة الإسلامية، ولتكون الحرية واسعة المدى للناس فى تعرف مصالح الدنيا التى تَجَدُّ باختلاف العصور. ولما تمت البيعة لأبى بكر الصديق رضى عنها قوم وتبرم بها آخرون، غير أن شخصية أبى بكر وجلال قدره وحسن بلائه فى تأييد الإسلام أسكنت النفوس الغاضبة فسار بالأمر قُدُماً حتى عهد به إلى عمر بن الخطاب حرصاً على سلامة الأمة من التفرق. لم يكن عمر بن الخطاب من أقرباء أبى بكر، فذاك من عدىّ وأبو بكر من تيم؛ فليس هناك مطمن فى غاية شخصية يرمى إليها أبو بكر، وإنما اختار للمسلمين أقوى رجل يحسن الاضطلاع بالأمر، وتحرى بهذا الاختيار مصلحة الأمة ما استطاع، لم يرفع أحد رأسه ولم يشجُر أى نزاع على عمر فتحققت بذلك فِراسة أبى بكر. ولا ريب أن شخصية عمر بن الخطاب فذة فى التاريخ الإسلامى وقد طالت خلافته فظهرت عبقريته فى سياسة المسلمين وفى حروبهم وفى حسن التصرف فى الأموال التى تدفقت كالسيل المنهمر عقب فتح دولتين عظيمتين: فارس والروم. وأعظم ما مكن لعمر أنه أفنى نفسه فى سبيل واجبه، وفهم نفسية العرب حق الفهم، وكان يفصل فى الأمور بحزم يحدث الرهبة والحذر فى صغار الناس و كبارهم.

عرف فى العرب قوة النقد فكان إذا نهى الناس عن أمر من الأمور جمع أهله فقال: إنى نهيت الناس عن كذا و كذا وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطَّيْر إلى اللحم، وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة.

وعرف فى بعض زعماء قريش الدالة على الناس بما امتازوا به من صحبة الرسول عليه السلام فأخضع نفوس الخاصة إرضاء للعامة .

(أُتِيَ عمر بمال فجعل يقسمه بين الناس فازدحموا عليه ، فأقبل سعد بن أبي وقاص يزاحم الناس حتى خلص إليه فعلاه عمر بالدِّرَّة وقال له : إنك أقبلت لا تهاب سلطان الله فى الأرض فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك) .

ولسنا بسبيل أن نعدد منهج عمر. وجُمَّاع القول أن عمر سار فى الناس بسياسة جمعت بين الشدة واللين والنزاهة والبعد عن الغرض ، فلم يجد أحد سبيلا إلى إعلان تبرمه أو إلى مغمز فى عمر ، وكان أعجب شيء يقظته للشخصيات الكبيرة فى الدولة ومحاسبتهم على ما يقولون ويفعلون حتى قيل : إن حاكما كبيراً مثل معاوية كان يخاف عمر أشدّ من خوف يَرْفَأ غلامِ عمر من سيده .

ولما طُعن عمر ورأى أنه ميت لا محالة فكَّر فيمن يتولى الأمر من بعده وقد لقى التعب والنصب فى سياسة الناس . ولما كان أبو بكر لقى ربه متحملا تبعة اختياره لم يشأ عمر أن يحمل هذا العبء ووجده ثقيلا على نفسه ، وقد لا تصدق فراسته فيمن يُوليه فيلقى الله ويحاسبه على ما صنع بالأمة . وماذا يصنع رجل مطعون والدم ينزف منه ! خاف حساب الله فى آخر مرحلة من مراحل الدنيا . لقد استولت عليه الحيرة : أيسير على طريقة الرسول فيترك الأمر للمسلمين دون تعيين أو ترشيح ؟ أم يتبع طريقة أبى بكر من حيث التعيين ؟ على أنه خشى الأمرين جميعاً ؛

إذ رأى بنفسه ما أدى إليه التنافس الشديد فى الخلافة بعد موت الرسول ولمّا يدفن ، كذلك خشى أن يعيّن شخصاً بالذات لأن انتقاء مثل ذلك الشخص أمر عسير ؛ إذ لم يجد بين المسلمين من يدانيه قوة وبأساً ، ولأنه الآن — والموت يدنو منه — على حال فزع منها أن يشتغل باختيار من يخلفه ، وخشى أن يكون للناس فى تصرفه مطعن . لهذا نراه سلك سبيلا ثالثاً يجمع بين الرأيين حتى لا يترك جماعة المسلمين دون الفصل فى هذا الموضوع . نراه رشح ستة من رجالات عصره ممن توفى النبي وهو عنهم راض ، والذين كان عمر لا يفتأ يذكرهم بما كان لهم من مواهب ومزايا تؤهلهم لتولى أمور المسلمين ، وهم : علىّ بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، وسعد بن أبى وقاص ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهم أجمعين .

اجتمع هؤلاء الستة بأمر عمر بن الخطاب للتشاور ثم ارتفعت أصواتهم فقال عبد الله بن عمر : سبحان الله ! إن أمير المؤمنين لم يمت . وأسمعه ذلك فانتبه وقال : ألا أعرضوا عن ذلك أجمعين فإن مت فتشاوروا فى الأمر ثلاثة أيام ، وليصل بالناس صُهيب ، ولا يأتينّ اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ، ويحضر ابنى عبد الله بن عمر مشيراً ولا شىء له فى الأمر ، وطلحة فهو شريككم فيه فإن قدم فأحضروه أمركم ، وما أظن أن يلى إلا هذان الرجلان : على أو عثمان . فإن ولى عثمان فرجل فيه لين . وإن ولى علىٌّ فرجل فيه دُعابة . وَأَحْرِ أن يحملهم على طريق الحق . وإن تولوا سعداً فأهلها هو وإلا فليستعن به الوالى ؛ فإنى لم أعزله

عن خيانة ولا ضعف . ونعم ذو الرأى عبد الرحمن بن عوف مسدّد رشيد له من الله حافظ فاسمعوا منه .

وقال لأبى طلحة الأنصارى : يا أبا طلحة إن الله طالما أعز الإسلام بك فاختر خمسين رجلا من الأنصار فاستحث بهم هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم .

ولما دفن عمر جمع المقداد بن الأسود أهل الشورى فى بيت المسور بن مخرمة كما أشار عليه عمر بذلك ، وهم خمسة معهم عبد الله بن عمر وكان طلحة غائباً ، وعلى الرغم من أن عمر قد حصر الانتخاب فى ستة رجال ورسم لهم الطريق التى تتبع فى الانتخاب فإن الأمر لم يمر بسهولة ، لأن كلاً من هؤلاء كان شديد الحرص على أن يلى الخلافة بنفسه إن لم يلها أحد من أقربائه وذوى عصبته بما لهم من المكانة والشخصية والصلاحية . ويعتبر ابن عوف رضى الله عنه المحور الذى تدور عليه رحى الحوادث فى قصة الشورى ، فقد استطاع بحكمته وحسن سياسته أن يحل العقدة فى هذه المشكلة : وذلك أنه اقترح اقتراحاً يتلخص فى أن يتنحى كل واحد منهم عن حقه فى الترشيح للخلافة على أن تكون له الكلمة الفاصلة فلم يجبه أحد فقال : أنا أنخلع ، فلقيت هذه الكلمة هوًى عند عثمان فقال : أنا أول من رضى فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أمين فى الأرض أمين فى السماء . فقال القوم : قد رضينا . وأما على فقد كان ساكتاً لا يتكلم ، فقال ابن عوف : ما تقول يا أبا الحسن ؟ فقال : أعطنى موثقاً من الله لتؤثرن الحقّ ولا تتبع الهوى ولا تخصّ ذا رحم ولا تألو الأمة خيراً .

ثم أخذ عبد الرحمن من الصحابة المواثيق على أن يكونوا معه على من بدَّل وغيَّر وأن يرضَوا بما يستقر عليه رأيه فأجابوه إليها وأعطاهم مثلها.

أخذ عبد الرحمن بعد ذلك يختلى بالمرشحين الموجودين فيقول لعلى : أرأيتَ لو صُرف الأمر عنك فلم تحضر من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق بالأمر ؟ قال : عثمان بن عفان . وخلا بعثمان فقال له مثل ما قال لعلى فقال : على بن أبى طالب . وفعل ذلك مع سعد بن أبى وقاص والزبير ابن العوام وقد قالا : عثمان . وفى صبيحة اليوم الرابع جمع عبد الرحمن ابن عوف — الذى لم ينم طيلة هذه الأيام الثلاثة — الرهط وبعث إلى من حضر من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار وإلى أمراء الأجناد وخطب فيهم ، فقال عمار بن ياسر : إن أردت ألا يختلف المسلمون فبايع علياً . وقال المقداد بن الأسود صدَق عمار إن بايعت علياً قلنا سمعاً وطاعة . وقال عبد الله بن أُبى سرح : إن أردت ألا تختلف قريش فبايع عثمان . فقال عبد الله بن أبى ربيعة : إن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا . فشتم عمار ابنَ أبى سرح وتلاحى بنو هاشم وبنو أمية . فتدارك عبد الرحمن الأمور ودعا علياً وقال له : عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسنة الخليفتين من بعده . فقال على : أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى . ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلى . فأجابه إلى طلبه فبايعه عبد الرحمن بالخلافه ، عند ذلك قال على : ليس هذا أولَ يوم تظاهرتم فيه علينا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون . والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك ، والله كل يوم هو

فى شأن . ثم بايع علىٌّ عثمان وخرج وهو يقول : سيبلغ الكتابُ أجله .
وكان ذلك فى يوم الاثنين لليلة بقيت من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة (٧ نوفمبر سنة ٦٤٤ م)

لا شك أن عمر أراد أن يسد ذرائع النفاق ويجنّب الأمة الخلاف ، ولكنها وقعت فيما أراد أن يجنبها إياه : يشير إلى ذلك ما رُوى من أن معاوية بن أبى سفيان سأل ابن الحُصَين حين وفد عليه وكان ذا عقل وروية : ما الذى شتت أمر المسلمين وخالف بينهم ؟ قال ابن الحصين : قتل الناس عثمان . قال معاوية : ما صنعتَ شيئاً . قال : فمسير علىّ إليك وقتالهُ إياك . قال : ما صنعت شيئاً . قال : فمسير طلحة والزبير وعائشة وقتال على إياهم . قال : ما صنعت شيئاً . قال ما عندى غير هذا يا أمير المؤمنين . قال : فأنا أخبرك : إنه لم يشتّت بين المسلمين ولا فرق أهواءهم إلا الشورى التى جعلها عمر إلى ستة نفر . وذلك أن الله بعث محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . فعمل بما أمره الله به ثم قبضه الله إليه وقدّم أبا بكر للصلاة فرضوه لأمر دنياهم إذ رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمر دينهم ، فعمل بسنة الرسول وسار بسيرته حتى قبضه الله ، واستخلف عمر فعمل بمثل سيرته ؛ ثم جعلها شورى بين ستة نفر ، فلم يكن منهم رجل إلا رجاها لنفسه ورجاها له قومه وتطلعت إلى ذلك نفسُه . ولو أن عمر استخلف عليهم كما استخلف أبو بكر ما كان فى ذلك اختلاف .

وهذا الرأى هو رأى الحصيف المجرّب الذى حلب الدهر أشطره ،

وغلب برأيه ودهائه صاحب الحق على حقه ، وأقام دولة الإسلام على تخوم دولة الروم موطدة الأكناف قوية الدعائم ، وحاشا لعمر أن يتهمه أحد فيما فعل ، فإنه لم يرد إلا الخير للمسلمين جاهداً . وكان أعظم ما يرجوه من ذلك ألا يكون خلاف وافتراق بين المسلمين حتى لا يصيبهم الوهن والإسلام لا يزال غضاً وحكومة المسلمين لما تثبت دعائمها وترسُ أصولها .

وأكبر الظن عندنا أن عمر لو كان فى حال غير هذه فربما فضل أن يريح المسلمين من العناء والمناوشات الحزبية ويعهد إلى من هو أهل للخلافة ؛ فقد يجد الناس لهذا التعيين حرمة تُسكت الألسنة والدولة لا تزال فتية ، أعدى أعدائها الشقاق والانقسام ، ولكن عمر لجأ إلى ما يصنع من يريد ألا يتحمل وزر الأمة حياً وميتاً ، فجعل الخلافة شورى فى ستة نفر ممن مات رسول الله وهو عنهم راض . وبعد مفاوضات بينهم كما تقدم وكلوا أمر اختيار الخليفة لعبد الرحمن بن عوف بعد أن تعهد لهم أن ينزع نفسه منها ، فاستشار الناس فوجد جمهرة تؤيد علياً وجمهرة أكبر منها تؤيد عثمان ، وذلك لأن الناس سئموا سياسة الشدة فى عهد عمر ورجَوا أن يتولى عليهم من يرفق بهم ، وكان فى عثمان لين ورأفة فرجحت أصوات عثمان على أصوات علىّ ، فاختاره خليفة وتقاطر الناس لبيعته .

مقدمات الثورة

(١) بنو أمية وبنو هاشم

ولد لعبد مناف أحد أجداد النبي صلى الله عليه وسلم ولدان سار كل فى سبيل من سبل الحياة هما هاشم وعبد شمس : فأما عبد شمس فقد تفرع منه أمية جد الأمويين ، وأما هاشم فهو جد الهاشميين .

وشاء الله أن يكون الأمويون تجاراً واسعى الثروة كثيرى العدد بارعين كل البراعة فى عقد الصلات الاجتماعية بينهم وبين الناس ، وأن يكون بنو هاشم سادة الناس وذوى الشرف فيهم لما لهم من خدمة الكعبة والمراسم الدينية الموروثة . فكان لهم الشرف العظيم بالرفادة : ببذل المال للناس فى موسم الحج ، وبالسقاية : بسقى الحجيج ؛ فهم موئل حجاج الكعبة قبل الإسلام ، والناس يرعَون حقهم ولهم فى نفوسهم حرمة وذمام .

وقد كانت المنافسات على الرياسة بين هاتين القبيلتين قوية فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام وصارت النبوة فى بنى هاشم رجحت كفتهم على كفة أبناء عمهم بنى أمية . وهنا غلى الحقد واضطرمت البغضاء فى نفوسهم فكانوا أشد الأعداء للرسول قبل فتح مكة ، وزعيمهم أبو سفيان ابن حرب بن أمية ، فكانت الحرب بين الرسول ومعه المهاجرون والأنصار ، وبين أهل مكة يقدُمهم رءوس الأمويين وقائدهم أبوسفيان . فلما فتح الرسول مكة أسلم هؤلاء جميعاً وصاروا جنداً من جنود الإسلام

وهنا يجب على المنصف أن يسدل على الماضى ستاراً كثيفاً من رحابة الإسلام ، فالخلاف السياسى لا يمس العقيدة ولا ينزع إلى تجريد الناس مما رضى عنه الرسول وقبله من حسن إسلام بنى أمية واتخاذهم حكاماً مؤتمنين على رسالة الإسلام إلا من شذ منهم . وهنا نخالف بعض المؤرخين الذين لم يرعَوا حرمة الإسلام فى هؤلاء الناس وخلطوا ماضيهم فى الجاهلية بحاضرهم فى الإسلام .

ومهما يكن من شىء فثقة الإنسان بنفسه أنه أهل للرياسة متمرس بسياسة الناس وأوفر عدداً وأكثر مالاً — كل أولئك أدوات الحكم فى القديم والحديث . ومعاذ الله أن ندخل الكفر والإيمان والإخلاص فى العقيدة فى نزاع سياسى ومآرب فى الملك والسلطان ؛ فقد دار الزمان دورته ، وإذا ببنى أمية ملوك يحكمون الناس والإسلام هو الإسلام ، بيد أن تقلبات الزمن لها أحكامها والملابسات السياسية والاجتماعية تداول بين الناس فى آرائهم وتباين بين مذاهبهم .

وبعد أن وضعنا السد الذى وضعه الإسلام فى الحكم على الأشخاص قبل الإسلام وبعده نعود إلى ما كنا فيه .

أسلم أهل مكة بعد الفتح وعلى رأسهم زعماء قريش ، واتسع بعد ذلك الملك الإسلامى ، وكان الرسول خبيراً برجاله يوجه كلاً فيما يليق به . أما قرابة الرسول من بنى هاشم فهم يتلقون الوحى عنه وينشرون الدين ، وقد زادتهم رسالة النبى شرفاً على شرف ، فهم مطمئنون إلى ما آتاهم الله من عز ورياسة وفضل على الناس . وأما بنو أمية فقد

رأى فيهم الرسول عليه السلام حصافة فى سياسة الناس فجعلهم حكاماً على كثير من البلاد الإسلامية . قال عمر بن عبد العزيز : توفى رسول الله وأربعة من بنى أمية عمال له : عتاب بن أسيد على مكة ، وأبان ابن سعيد على البحرين ، وخالد بن سعيد على صنعاء ، وأبو سفيان بن حرب على نجران . وظل كثير من بنى أمية أمراء على البلاد فى عهد الخليفتين أبى بكر وعمر . فلا غرابة أن يكون الزمن قد مد لبنى أمية فى الأمل وازداد حرصهم على الإمرة كلما تعاقب الزمان .

كان معاوية بن أبى سفيان عاملاً على الأردن فى عهد عمر بن الخطاب ، وكان أخوه يزيد بن أبى سفيان أميراً على دمشق ، فلما مات نعاه عمر إلى أبى سفيان فقال : من جعلت على عمله يا أمير المؤمنين ؟ قال : معاوية . قال : وصلتك رحم .

قال المقريزى وهو ممن يميل إلى التشيع : (فإذا كان رسول الله قد أسس هذا الأساس وأظهر بنى أمية لجميع الناس بتوليتهم أعماله فيما فتح الله عليه من البلاد فكيف لا يقوى ظنهم ولا ينبسط رجاؤهم ولا يمتد فى الولاية أملهم ، أم كيف لا يضعف أمل بنى هاشم وينقبض رجاؤهم وتقصر آمالهم ؟ لم يكن فى عمال رسول الله ولا عمال أبى بكر وعمر أحد من بنى هاشم ، فهذا وشبهه هو الذى حدد أنياب بنى أمية وفتح أبوابهم وأترع كاسهم وفتل أمراسهم) .

فلما ولى الخلافة عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية تنفس

الأمويون الصعداء وعلموا أن الفرصة سنحت وقوى أملهم فى الملك الموروث والسيادة الدائمة على الناس .

نعم إن عثمان أموى ولكنه صار خليفة عن شورى أصحاب رسول الله ، وهو رجل نزيه النفس كل آماله منحصرة أن يوفقه الله لخير المسلمين. وأما مايجول بخاطر الأجانب والأشياع فهو أمر من وراء ظهره .

وظل الأمويون يعملون فى الخفاء ألا يفلت الأمر من أيديهم فى المستقبل حتى انكشف الأمر وكانت مآربهم حربًا على عثمان وعاملا من عوامل الثورة عليه . وهذا قول مروان بن الحكم ابن عم عثمان وقد خرج إلى الثوار حينما حاصروا داره : أجئتم تريدون أن تنزِعوا ملكنا من أيدينا ؟ ارجعوا إلى منازلكم فإنا والله ما نحن بمغلوبين على ما فى أيدينا .

وأما قرابة الرسول من بنى هاشم فكان على رأسهم الشاب العالم والبطل الذكى الورع على بن أبى طالب ، فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رأيه أن العدالة تقضى أن يكون خليفةَ الرسول ؛ لأنه إن كان الأمر أمر قرابة قريبة فهو أولى الناس ، وإن كان الأمر لقريش لأن رسول الله قرشى وهم بهذا النسب أولى من الأنصار فأجدر الناس بالأمر ابن عمه .

أما جمهرة المهاجرين فرأت أنه ما دام الرسول لم يعهد لأحد فأحق الناس بذلك أعظمهم هيبة وأشدهم احتراماً فى الناس وبلاء فى الإسلام ، وهو أبو بكر الصديق ، ولعلهم تفادوا الخلافات الحزبية أيضاً فعهدوا

بالأمر للصديق فلم يسع عليا إلا الرضا والدخول فيما دخل فيه المسلمون .

قال عمر لابن عباس : أتدرى مامنع الناس منكم ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين . قال : لكنى أدرى . كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوة والخلافة فتجْحَفوا جَحْفاً[1] ، فنظرت قريش لأنفسها فاختارت ووفقت .

ولكن بنى هاشم أسرة الرسول صلى الله عليه وسلم تهوِى إليها قلوب الناس ، وكلما امتد الزمن تغلغل حبهم فى النفوس ، وكان فريق من الناس يرى حبهم عبادة يتقرب بها إلى الله ، وما زال أمرهم ينتشر فى الأوساط الإسلامية ؛ فى الحجاز وفى خارج الحجاز حتى كبر حزبهم ورجا الناس أن تكون الخلافة فيهم ، وكانت قبل ذلك أملاً تجيش به النفوس ، ظهر أثره عند استخلاف عثمان . فلما أخذ بنو أمية يتعالَون فى البنيان فى خلافة عثمان أثار ذلك ما كمن فى نفوس العلويين وكان من أمر هذا الخلاف ما كان .

(٢) الحياة الاجتماعية فى عهد عثمان

تولى الخلافة عثمان رضى الله عنه أمداً طويلاً لا يقل عن اثنى عشر عاماً ، فمكث ستة أعوام من حكمه والفتوح الإسلامية تتوالى وجنود المسلمين يوغلون فى كثير من أقطار الأرض : فتحوا بلاد فارس وقسمًا عظيمًا من بلاد الروم ، وما زالوا يقاتلون حتى وصلوا إلى حدود الصين والترك ، فهاجر كثير من القبائل العربية من الحجاز إلى العراق والشام ومصر وكثير من البلاد المفتوحة ، واتخذت بعض القبائل الأرض

---

(١) تستأثروا بأسباب الشرف والسيادة : النبوة والخلافة .

الجديدة دار إقامة ، ونزح كثير من بطونها إليها ، وتدفق الخير على المسلمين من كل مكان وطئته قدم مسلم ، والأموال التى لا حصر لها تأتى إلى المدينة مقر الخلافة فيوزعها عثمان على الأغنياء والفقراء حتى أصبح عدد كبير من الصحابة بتوالى الفتوح من عهد النبى إلى عهد عثمان من كبار الموسرين ، وكان عثمان مبسوط اليد سخياً رقيق القلب سهل الأخلاق ، يدير سياسة الدولة فى رفق ولين ، يعطى هذا ويرضى غضب ذاك ؛ فإذا عرض له أمر من الأمور غلبت عليه طبيعته فحاول أن يوفق بين الآراء المتناقضة والأهواء المتعارضة ؛ فكل له من سماحة أخلاقه نصيب ؛ غير أن هـذا الخلق الطيب إن حسن فى سياسة الأفراد فقد يكون شديد الخطر فى سياسة الجماعة . قال ابن عمر : (لقد عيبت عليه أشياء لو فعلها عمر ما عيبت عليه) لهيبة عمر وشدته وسماحة عثمان وسهولته .

قال الحسن البصرى : شهدت عثمان وهو يخطب وأنا يومئذ قد راهقت الحلم فما رأيت قط ذكراً ولا أنثى أصبح وجهاً ولا أحسن نضرة منه فسمعته يقول : أيها الناس : اغدوا على أَعْطِيَاتكم . فيأخذونها وافية . أيها الناس : اغدوا على كسوتكم . فيغدون ، فيجاء بالحلل فتقسم بينهم حتى والله سمعت أذناى : يا معشر المسلمين : اغدوا على السمن والعسل ، فيغدون فيقسم بينهم السمن والعسل . ثم يقول : يا معشر المسلمين اغدوا على الطيب فيغدون فيقسم بينهم الطيب من المسك والعنبر وغيرهما . والعُدوان والله منفى ، والأعطيات دارَّة والخير كثير ،

وما على الأرض مؤمن يخاف مؤمناً . من لقى مؤمناً فى أى البلدان فهو أخوه وأليفه وناصره ومؤويه .

كان ذلك وجيوش المسلمين تغزو ؛ فالبلاد الإسلامية فى نعمة وافرة ، وعسكر المسلمين مشغولون بالحرب ، وعيون الناس متطلعة لهذه الجيوش المظفرة حيناً وهذا الخير المجتلب حيناً آخر ، حتى إذا استراحت الجيوش من الغزو بعد ما فتحت أكبر رقعة من البلدان كان من الطبعى أن تتجه كل هذه الجماهير من المسلمين إلى الحاكم الأكبر وإلى نوابه من الحكام فى المدن والأمصار ، فأخذوا عليه وعلى ولاته اللفتة والنظرة ، وحاسبوهم على الصغير والكبير ، ولم يُقدَّر أن يكون ذلك فى عهد عمر ، إذ لو كانت كذلك لكانت له سياسة يبتدعها عقله الجبار ، فيخافه الناس ويرضون .

وقد قلنا إن اتساع نطاق الفتوح ضاعف ثروة المسلمين ، وإن رجوعهم من الغزو أدى لتطلعهم إلى ما يبغون من نصيب فى هذه الثروة الواسعة ، فكان الموقف يحتاج إلى مهارة اقتصادية فى الدولة وجهود جبارة تعمل على استقرار نظام الثروة بتوزيعها توزيعاً مناسباً فى كل مكان ، فعمل عثمان ما استطاع فى الحدود التى اتسع لها نطاق عقله واستجابت لها طبيعة العطف ورقة القلب والتسامح ، فكان طبعياً أن يتحاسد الناس على المطامع وينظر كل فريق إلى مقدار مال الآخر .

هؤلاء أصحاب رسول الله المهاجرون أحسوا بالرفاهة ونعومة العيش

وما كان لمترف واسع الثراء متعدد نواحى المال من ذهب وفضة وإبل وشاء أن يحصر ثروته فى مكان ضيق ، فتطلعت أنظارهم إلى الأراضى الواسعة وأودية النعيم المخصبة من العراق والشام ومصر ، وكان عمر يوجس خيفة من انسياحهم فى الأمصار فيحجزهم فى الحجاز إلا بإذن وإلى أجل ؛ ذلك لأنهم مشيخة العرب ولهم رأى ولسان ، والناس فى الأمصار الإسلامية يتطلعون إليهم ويقدرون صلتهم بالرسول وتلقيهم الدين عنه ؛ فربما أفلتت كلمة من لسان عن غير قصد فكانت سبباً فى اختلاف الناس ، والناس لا يزالون حديثى عهد بهذه الدولة التى كان يحرص الخلفاء والحكام على دعمها وتثبيت قواعدها .

هذا الرأى الذى ارتآه عمر فيه تضييق على الحرية الشخصية ، ولكن فيه سلامة الدولة ، وكان حرص عمر على هذه المسألة بالذات قد وصل إلى حد المبالغة فى التضييق .

قال الشعبي : (لم يمت عمر حتى ملته قريش وكان حَصَرهم بالمدينة وقال : إن أخوف ما أخافه على هذه الأمة انتشاركم فى البلاد ، فإن الرجل ليستأذنه فى الغزو — وهو ممن حبس بالمدينة من المهاجرين ، ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة — فيقول : قد كان لك فى غزوك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلَّغك ، وخيرلك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك) فلما كان عثمان خلى عنهم رغبة فى الإكثار من سواد عظماء المسلمين وصلحائهم فى البلاد المفتوحة ، وكان حسن النية فاضطربوا فى البلاد وانقطع إليهم الناس .

إذاً فقد استقبلت البلاد الإسلامية أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وجلس إليهم الناس واستمعوا لبناة الإسلام الذين فدوه بدمائهم وأموالهم ، والذين صاحبوا الرسول ورأوه بأعينهم وأشربوا حبه وطالت صحبتهم له ، فحديثهم عنه حديث مشافهة ، وحبهم له حب خالص ؛ فالنبي كان آثر عندهم من آبائهم وأبنائهم ، فرأى الناس هذا المنظر الجديد وازدادوا فى التقرب إلى هؤلاء الصفوة من أصحاب الرسول .

حقاً لقد فشت القالة فى الناس وجرَوا على طبيعة الإنسان وبخاصة أن عمر رشح عدداً للخلافة وكان يمكن أن يظفر أى واحد من هذا العدد بها . فلعل بعضهم يقول . لو كان عليٌّ لكان خيراً ، ولو كان طلحة لكان أنفع ، ولو كان الزبير لكان أجود ، ولو كان سعد لكان أحسن ، ولو كان عبد الرحمن بن عوف لكان أعدل . قال المرحوم الأستاذ الخضرى بك : (وكانت قريش — بحسب القاعدة التى كانت متبعة — كأعضاء الأسرة التى لها الأمر ، كبارها مرشحون لأن يلوا الخلافة يوماً ما ، وليس هناك نظام يبين سابقهم ولاحقهم ، ومع ذلك فهم متباعدو العشائر مختلفو الأسر ، فكان نظر عمر والحال ما ذكرنا دقيقاً فى الحجر على أعلامهم أن يبارحوا حاضرة الخلافة) ، ثم الأحوال الاقتصادية وتوسيع مرافق الحياة من طبعهما أن يولدا الكلام ويوجها الألسنة ، فإما حكام يضربون على الأيدى فيخشى الناس بأسهم ، وإما أنظمة اجتماعية تشمل الناس وتقسرهم على ألا يتعدوها ، ولم يكن هذا ولا ذاك بالمعنى الدقيق فى عهد عثمان نعم إن التشريع الإسلامى وضع

الأنظمة الاجتماعية ، ولكن تنفيذها من الناحية العملية يحتاج إلى وقت طويل كما هى طبيعة الاجتماع البشرى ، فإذا كان أبو بكر وعمر اجتازا هذه الأخطار فما سلم منها عثمان ؛ فقد تشعبت عليه المشكلات وتفتحت أمامه الأبواب ، وما كان له أن يقدر على سدها بمفرده ، وتعددت وجوه السخط والرضا ، وابتدأت الخلافات صغيرة ثم كبرت واستفحل أمرها وكانت فى حاجة إلى علاج حاسم يقضى عليها فى مهدها ، ولكن اتسع الخرق على الراقع ولم يكن فى مقدور رجل مثل عثمان مقاومتها والقضاء عليها .

لما أذن عثمان للمهاجرين بالإقامة فى البلاد المفتوحة باعوا أرضهم وبساتينهم التى بالحجاز واشتروا بثمنها بساتين وأراضى فى البلاد التى حلوها ؛ فانتقلوا إليها وهم أغنياء فنظر الناس إليهم من ناحية أخرى واسترجعوا تاريخ الرسول وأبى بكر وشظف العيش الذى كانوا فيه ثم نظروا إلى أنفسهم ، فدارت الأحاديث دوران الكهربى فى الأجسام ، والعامة سريعة التصديق لكل ما يقال ، فأنتجت شيئاً واحداً طبيعياً فى كل أمة وبلد وهو السخط على الحكام وانتقادهم فيما عز وهان .

هذه القصور بنيت لخاصة قريش فى الكوفة والبصرة ، وتلك الضياع يملكها أصحاب الرسول وذوو القربى من السلطان ، فلا يمكن أن تسكت الألسنة وقد حُلّت من عقالها فى زمن عثمان وكانت معقولة فى زمن عمر حتى قال قائلهم :

لنَـاَ نار نخوّفُها فنخشى — وليس لهم فلا يَخْشَون نار

فبعد أن كان الخلاف على عثمان يتردد سراً بين من يتعلقون بعلى

رضى الله عنه جدت مسألة برزت كل البروز وهى حسد قبائل العرب لقريش عامة وشعورهم بالحرمان من كثير من الثمرات المادية التى كانت تتمتع بها قريش ؛ ولذلك نجد كثيراً من الثوار على عثمان من قبائل مختلفة جمع بينها السخط العام . والعرب مهما يكن من انتظام الإسلام قلوبهم ، فهم ناس من البشر لهم طباع غريزية يشترك فيها البدوى والحضرى إلى يوم الناس؛ فلسنا نجارى بعض المؤرخين فى انتقادهم طبيعة العرب ، ولسنا نبحث فى مبلغ قوة إيمان الثائرين فى فتنة عثمان ، ولكن الثورة فى كل العالم عمياء ، والنفوس إذا هُيِّئَتْ لها تحركت العاطفة وجمد العقل ، لا فرق فى ذلك بين عالم وجاهل ، وبين متين الدين ورقيقه .

قال الدكتور جوستاف لوبون فى كتابه روح الاجتماع : (إن فى جميع النفوس المدركة استعداداً لتوليد أخلاق جديدة تظهر إذا تغيرت البيئة تغيراً فجائياً ، هكذا رأينا بين رجال الثورة الفرنسية أفراداً كانوا كالوحوش الضوارى وقد كانوا فى زمن السلم قضاة من ذوى الفضل . وأعظم الناس لا يتفاوتون عن العامة فى الأمور التى مرجعها الشعور كالدين والسياسة والآداب والميل والنفور وهكذا إلا نادراً ، فقد يكون بين الرياضى الكبير وبين صانع حذائه بعد ما بين السماء والأرض من حيث العقل والذكاء ، ولكن الفرق بينهما فى الطباع معدوم فى الغالب أو ضعيف للغاية)

فإذا نظرنا إلى الناس فى زمن عثمان فى ضوء هذا الرأى ونظرنا إلى ثورات كثيرة فى العصور الوسطى والحديثة نخرج بنتيجة واحدة وهى

أنه ليس من الضرورى أن تكون الثورة ناشئة من أسباب قوية موجبة لها بحيث لا تعالج إلا بالثورة ، وإنما يكفى أن تتبلبل الأذهان فتنشأ ثورة تأكل الأخضر واليابس ؛ والثورة فى عنفوانها لا يجدى فيها الإقناع ولا ينفع فى إخمادها الحجة ، كالحمى يروضها الطبيب ويقف دون استعارها وشدتها حتى تستوفى أمدها من غير أن تعقب خطراً ؛ فإذا لم توفق الحمى إلى طبيب حاذق ولم توفق الثورة الى سياسى ماهر يروضها فيمكر بالناس ويناورهم ويستجيب لعواطفهم فالخطر متوقع ، وهكذا كان الأمر فى الثورة على سيدنا عثمان أو قل إنه سوء حظه وقدر الله فيه .

(٣) الأمصار أوكار الفتنة

مصر :

ظل عمرو بن العاص والياً على مصر منذ فتحها على عهد عمر إلى عهد عثمان ، فسار فى الناس سيرة المجرب الحازم ، ولكن رجلا أبلى بلاء حسنا فى طرد الروم من الأسكندرية فى غزوة ذات الصوارى وفتح جزءاً من إفريقية هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وكان أخا عثمان من الرضاع وكان النبى عليه السلام اتخذه كاتباً له فبدل وغير فى آى القرآن فأهدر النبى دمه فشفع له عثمان ، فأصبح مطعون الخلق والدين بين المسلمين ، ومع ذلك فإن عثمان حرص أن يجعله والياً على مصر ، فمهد لذلك بتقسيم السلطة بينه وبين عمرو بجعل عمرو والياً على الحرب وعبد الله والياً على الخراج ، فقال عمرو : أنا إذاً كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها ، وأبى

هذا التقسيم ؛ فعين عثمان ابن أبى سرح على الحرب والخراج وعزل عمراً ، فكان هذا العمل مفتاحاً للطعن فى عثمان وفى ولاته . وزاد الطين بلة تحول عبد الله بن سبأ الداعية لعلى والمفسد بين المسلمين إلى مصر ، واتخاذها عشاً للفتنة ، ولا سيما أنه وجد بها مرتعاً خصباً لانضمام شخصين خطرين : هما محمد بن أبى بكر الصديق ومحمد بن أبى حُذَيْفة ، وهما من ألد أعداء عثمان وابن أبى سرح ، وتآمروا فيما بينهم على خلع عثمان ، وأصدروا الكتب المزورة المنسوبة إلى على إلى الأمصار الأخرى ، واستمرت المكاتبة تجرى بينهم و بين البصرة والكوفة والمدينة فى وضع الخطط التى تكفل تهييج العامة فى هذه المدن الثلاث خاصة والبلاد الإسلامية عامة ، فاضطر ابن أبى سرح أن يغادر مصر إلى المدينة للشكوى إلى عثمان وتلقى رأيه فى هذه الأحداث ، فانتهز ابن أبى حذيفة هذه الفرصة ودبر الأكاذيب الجريئة لإشعال نار الفتنة فى مصر ! من ذلك أن يكتب الكتب على ألسنة أزواج النبى ، ثم يأتى إلى الإبل فيضمرها لتظهر عليها آثار السفر ، ثم يأخذ الرجال فيجعلهم على ظهور البيوت فيستقبلون بوجوههم الشمس لتلوحهم تلويحَ المسافر ، ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق المدينة بمصر ويرسلوا رسلاً يخبرون بهم الناس ليلقوهم وقد أمرهم ابن أبى حذيفة إذا لقيهم أحد أن يقولوا : (ليس عندنا خبر . الخبر فى الكتب) ، ثم يخرج هو والناس كأنه يلقى رسل أزواج النبى فيجتمع الناس فى المسجد ، ثم يقرأ القارىء الكتاب فيقول : (إنا لنشكو إلى الله وإليكم ما عمل فى الإسلام)

فيقوم أولئك الشيوخ من نواحى المسجد بالبكاء ، ويدعو ابن أبى حذيفة الناس إلى الثورة . وقد أرسل عثمان إلى مصر عمار بن ياسر لتحقيق الشكاوى فانضم إلى الثائرين ، فالتهبت مصر بالنقمة على عثمان واستعد دعاة الثورة للعمل بعد أن تكاثر عددهم ، وفشا فيهم النكير على عثمان وتصرفاته فى تولية أقاربه وفى توزيع المال عليهم ، وفى مسائل أخرى .

الكوفة :

كانت الكوفة من أكثر الأمصار هرجاً ومرجاً مما اضطر عثمان إلى تغيير الحاكم عليها عدة مرات ، ويتضح لنا من تشبث هؤلاء الناقمين بموقفهم ، كما سيأتى لك مع محاولة استرضائهم ، أن الهدف الذى كانوا يرمون إليه وما كانوا ليعدلوا عنه بحال من الأحوال هو عزل عثمان فإن أبى فقتله .

تولى على الكوفة سعد بن أبى وقاص ثم الوليد بن عقبة من أقرباء عثمان ، وكان من الكرم والسماحة بمكان عظيم حتى عم الرخاء الكوفة ، فحدثت حادثة أدت إلى الكيد له حتى عزل : ذلك أن بعض شباب الكوفة هجموا على رجل فى داره فخرج إليهم بسيفه ولما رأى كثرتهم استغاث فقتلوه ، فشهد مصرعه جار له يسمى أبا شريح الخزاعى وابنه فأخذوهم إلى الوليد وشهد عليهم أبو شريح وابنه ، فكتب الوليد إلى عثمان فيهم فأمره بقتلهم فقتلوا ، فحقد أهلهم على الوليد وعولوا على الكيد له فدخلوا عليه مرة ولما رآهم أخفى شيئاً تحت السرير ، وكان طبقاً فيه قليل

من العنب ، استحياء منهم ، فأخذوا بعد ذلك يشيعون فى الناس أننا دخلنا عليه وهو يشرب الخمر مع أبى زينب الطائى ، وكان معروفاً بشرب الخمر ، هكذا يقول بعض المؤرخين ، وبعضهم يرى أن الوليد كان حقاً يشرب الخمر ، وأخيراً انتدبوا وفداً ذهب إلى المدينة وطلب من عثمان حدّه وعزله لشرب الخمر ، فقال عثمان : من يشهد ؟ قالوا : فلان وفلان فقال : كيف رأيتماه . قالا : كنا فى غاشيته فدخلنا عليه وهو يقىء الخمر. فقال : ما يقىء الخمر إلا شاربها . فبعث إلى الوليد فجاء إليه وحلف وشرح لعثمان أسباب تآمرهم عليه . فقال عثمان : نقيم الحدود ويبوء شاهد الزور بالنار ، وجلد الوليد أربعين جلدة ، وعزله عثمان عن الكوفة وولى بدله سعيد بن العاص وهو من بنى أمية فأسف الناس على عزل الوليد لشجاعته وكثرة فتوحه وبره بالناس سادة وعبيداً حتى لبس الإماء ملابس الحداد وقلن :

يا ويلتا قد عُزِل الوليد وجاءنا مُجَوِّعاً سعيد

أما سعيد بن العاص فذهب إلى الكوفة ومعه أُولئك النفر الذين نفذ سهمهم فى الوليد ومنهم الأشتر النخعى المشهور فى الثورة ومن شيعة على البارزين ، وصعد المنبر فقال : والله لقد بعثت إليكم ، وإنى لكاره ، ولكنى لم أجد بداً إذ أُمرت أن آتمر. ألا إن الفتنة قد أطلعت خطمها وعينيها ، والله لأضربن وجهها أَو تُعْيِيَنِى .

وتدلنا هذه الخطبة على أن سعيداً أحس الشر مما عليه أهل الكوفة وأن الثورة تتمخض وتعمل عواملها . وتدلنا عودة الأشتر معه إلى

الكوفة أن الأشتر يضمر أموراً تدبر فى المدينة وتبيض وتفرخ فى الكوفة . وكان من الطبعى أن يوسع سعيد مجلسه للناس أعداء وأصدقاء ، وأن يأخذوا بأطراف الأحاديث ، فقال سعيد مرة : (إن السواد بستان قريش) فكانت هذه الجملة محركة لكامن الأحقاد . فقال الأشتر النخعى : (وتزعم أن السواد الذى أفاءه الله على المسلمين بأسيافنا بستان لك ولقومك ؟) فقال بعض أتباع الأمير : لوددت أن هذا الملطاط لك (أى ما كان لآل كسرى على الفرات) فضربه بعض الحاضرين . وثار الأشتر وابن الكواء وعمير بن ضابئ وهؤلاء الثلاثة من رءوس الثورة .

هذا الحديث الذى سقناه له خطره ، فإن قريشاً كانت مميزة على سائر القبائل بالمال واقتسام الأرض ، وكانت القبائل الأخرى التى يمثلها بعض زعماء الثورة ساخطة لعدم اشتراكها اشتراكاً فعلياً فى الثروات الواسعة التى أتت من أسلاب الفتوح ، فتفاقم حقدها على قريش من ناحية ، وعلى بنى أمية من ناحية أخرى ؛ فلم يسع سعيداً إلا أن يلجأ إلى الخليفة عثمان يبث إليه شكاته ، وكتب إليه بذلك ، فكان رد عثمان أن يجمعهم ويرسلهم إلى الشام حتى لا يفسدوا أهل الكوفة ، فكتب إلى معاوية بذلك فأنزلهم معاوية على الرحب والسعة وأكرمهم ، وكان يظن أن دهاءه يسعفه فى إرضائهم فخانه هذه المرة . وكان من قوله لهم : (وقد بلغنى أنكم نقَمتم قريشاً وإن قريشاً لو لم تكن عدتم أذلة كما كنتم) فقال رجل من القوم : (أما ما ذكرت من قريش فإنها

لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها فى الجاهلية فتخوفنا) . ولما يئس منهم كتب إلى عثمان : (إنه قدم علىّ قوم ليست لهم عقول ولا أديان ، أثقلهم الإسلام وأضجرهم العدل ، لا يريدون الله بشىء ، ولا يتكلمون بحجة . إنما هَمُّهُم الفتنة فانْهَ سعيداً ومن قِبَله عنهم ، فإنهم ليسوا لأكثر من شغب أو نكير) .

خرج أصحاب هذه الرؤوس الممتلئة بالعناد من دمشق ، وولوا وجوههم شطر الجزيرة فى شمالى العراق ، فسمع بهم عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد وكان أميراً على حمص فأحضرهم وقال لهم : لا مرحباً بكم ولا أهلاً . قد رجع الشيطان محسوراً وأنتم بعدُ فى نشاط ، خسِر والله عبد الرحمن إن لم يؤدبكم حتى يحسركم ، أنا ابن خالد بن الوليد ، أنا ابن من عجمته العاجمات ، أنا ابن فاقىء الردة ، ثم أقامهم شهراً كلما ركب أمشاهم قائلاً : مالك يا صعصعة لا تقول ما بلغنى أنك قلت لسعيد ومعاوية ؟ فيقول ويقول أصحابه : نتوب إلى الله ، أقِلنا أقالك الله . فما زالوا به حتى قال : تاب الله عليكم . ثم عفا عنهم عثمان فعادوا إلى الكوفة وأطلقوا ألسنتهم فى سب معاوية وسعيد وعثمان فلما ضاق بهم سعيد ذرعاً أخرجهم من الكوفة وذهب ليحج مع الخليفة سنة ٣٤ هـ .

وإن ما صنعه عبد الرحمن بن خالد بن الوليد نموذج كان يجب أن يحتذى فى معاملة الداعين إلى التأليب على عثمان ، بل كان يجب أن يسير على مثل هذا عثمان وولاته وبخاصة فى هذا الوقت ، وقت الخطر والتحفز للثورة . ونحن نرى أن الأمم قاطبة فى عصرنا الحاضر تعلن

الأحكام العرفية فى أوقات الخطر ؛ ذلك أن العامة حين يثور ثائرهم يتبعون أول داع من غير تمييز بين حق وباطل كما شرحنا ذلك فى وصف (الحياة الاجتماعية فى عهد عثمان) ؛ ولكن لين عثمان وبعده عن الإيذاء وميله إلى المسالمة بالقدر المفرط ولو تعرض هو للهلاك أدى كل ذلك إلى اضمحلال سلطانه وسلطان أمرائه واستهانة الناقمين بقوة الحكومة .

البصرة :

كان عبد الله بن عامر من بنى أمية أيضاً أميراً على البصرة ، وكان يسير فى الناس بالعدل ولم يُنغّص عليه الهدوء فيها إلا عبد الله بن سبأ الذى سنوضح أمره . فقد نبهت دعوته الناس إلى التبرم بعثمان ووجهت أذهانهم إلى عقد أواصر الفتنة وتكوين ثورة تنتظم المشاغبين والناقمين وتكثير العدد من الأمصار الثلاثة وتوجيه جموعهم إلى المدينة حتى أخذت الثورة طريقها إلى الغاية السيئة .

تحديد أسباب الانتقاض على عثمان

(رضى الله عنه)

يرجع انتقاض المسلمين على عثمان رضى الله عنه إلى طائفة من الأسباب نجملها فيما يأتى :

١ — دعوة ابن سبأ واشتراكية أبى ذر الغفارى

الدعوات الهدامة للحكومات إنما تنشط عند عدم الاكتراث بسلطان ذوى السلطان ، ولقد كفل الإسلام للناس حرية الرأى ، وكفل عثمان لهم الأمن من جانبه ، فهو يعفو عمن أساء ويأخذ الولاة بالرفق بالناس . فاستغل الطاعنون صراحة الإسلام ورفق عثمان ، وأطلقوا فى الجو مقالاتهم الخبيثة فتولد عنها التبرم بالدولة والانتقاض على الحكام ، وعجيب أمر الطبيعة البشرية لا يسير الإنسان قُدما إلا حين يخاف ، ومصدر الخوف عوامل كثيرة ؛ فقد يكون سوط الدين يسوق الإنسان فينبرى إلى غايته . أما الحاكم الرفيق الطيب النفس فأمره موكول إلى حَظِّه ، إن شاءت الريح صارت رخاء فاستراح . أو صارت زعزعا فاضطرب أمره وتناثر حبله فلا يستطيع أن يجمع المنتشر منه .

والعوامل المناهضة للحكومات إنما تتوالد من طبيعة الأشياء ، فتنشأ شيئاً ضئيلاً هيناً فى غشاء من الحيطة والحذر والدهاء . ولا يزال يتشكل ويدور فى طبيعته حتى يستوى ويخرج إلى الدنيا مارداً جباراً لا يعرف حدود الشرائع والقوانين ولا يقبل المنطق ولا يستسيغه .

رجل يهودى تشاء المصادفات الغريبة ألا يدخل فى الدين الإسلامى إلا حينما بدأ الناس يتذمرون من عثمان وولاة عثمان . أهى مصادفة حقاً أم جماعة سرية تضمر الكيد للإسلام فتُحرِّض هذا الرجل للانتقام ليهود يثرب وما صنع بهم الإسلام . وأشد النكاية بالإسلام والمسلمين تفريق الناس عن الخليفة عثمان رضى الله عنه .

رأى عبد الله بن سبأ فى كثير من الناس ميلا لعلى فأخذ يدعو لخلافة على ، ولكن فى ثوب من الحماسة الدينية المؤثرة . اختلط بأهل البصرة ، فقال لهم : عجبت ممن يقول برجعة المسيح ولا يقول برجعة محمد . عجباً لكم أيها المسلمون ، يكون فيكم أهل بيت نبيكم ثم يُقْصَون عن أمركم (يريد علياً) إن لله ألف نبى ، وإن لكل نبى وصياً ، وإن عليا وصى النبى . فإذا اجتمع عليه العامة وأشباه العامة من الذين لا يعرفون من الدين إلا قليلاً والذين لا تستطيع عقولهم أن تنقض قوله ، تأثرت بهذا الأسلوب العجيب الذى ينتهى إلى وجوب تنصيب على بالثورة على عثمان وولاة عثمان . إذاً فالناس فى حل من بيعة عثمان لأنها جاءت من أولها باطلة ، وما كان لأحد فى رأيه أن يكون خليفة بعد الرسول عليه السلام سوى على رضى الله عنه ، فنشأ من هذا الرأى غلاة الشيعة ، ثم ينتقل هذا الرجل إلى السياسة الداخلية فيدعو الناس إلى الطعن فى تصرفات الحكام ، فالتفت حوله العامة وكاد يحدث ثورة فى البصرة ، فاستدعاه حاكمها عبد الله بن عامر وسأله : من أنت ؟ فقال رجل من أهل الكتاب رغب فى الإسلام ورغب فى جوارك ،

فقال ابن عامر : ما يبلغنى عنك ؟ فاخرج عنى ، فخرج إلى الكوفة يبث دعوته ، ثم إلى الشام . ويظهر لنا من قول ابن سبأ لابن عامر أنه يريد أن يتحصن بالإسلام لتكون له حقوق المسلمين فى نقد أحوالهم والتغلغل فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما يدعى . وقد رغب فى جوار الأمير لا رضا بحكمه ، بل رغبة فى التشنيع عليه وعلى عثمان فلم يسع ابن عامر إلا طرده ؛ ولكن بعد أن شغل العقول فى البصرة وهيأها لغرضين : أحدهما دينى وهو خلافة على وصى الرسول ، والثانى سياسى وهو الطعن فى عثمان وولاته ، وفى ذلك هدم الدولة من أساسها ، ويظهر لنا أن ولاة عثمان كانوا مكتوفى الأيدى لا يستطيعون التصرف فى مثل هذا الأمر الخطير تأسياً بعثمان فى التسامح وترك الأمور تجرى فى أعنتها ، أو كما يقول عثمان : إنما نُمْسك الأمور ما استمسكتْ . فإذا حط هذا الداعية رحاله فى الشام وجد الناس راضين بمعاوية والأمور سائرة فى هدوء وطاعة ، فلم ييئس ولم يتوان أن ينفذ إلى غرضه بأساليب مختلفة .

وهذا أبو ذر الغِفَارى صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الأغنياء إلى النزول عن أموالهم للفقراء ويتلو على الناس قوله تعالى : (والذين يكْنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتُكْوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) . فيضطرب أمر العامة وينتقدون الخاصة من أهل السلطان وأرباب

الثراء، يتهمونهم بالطمع والجشع وتنكب سبيل الإسلام. عند ذلك يجد ابن سبأ منفذاً إلى هذا الشيخ الزاهد فى عرض الدنيا فينشر آراءه فى مجلسه ويغريه بالحكومة ويحرضه على الأغنياء. وصار يقول له: يا أبا ذر ألا تعجب لمعاوية يقول: المال مال الله ألا كل شىء لله، كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين. ظل أبو ذر يدعو إلى الاشتراكية المتطرفة بإرغام الأغنياء أن يساعدوا الفقراء ويتركوا أموالهم لهم. واتخذ بر الإسلام بالفقراء سبيلاً إلى ذهاب المال من أربابه، وما قصد الإسلام هذا بل كما قال الله تعالى: (والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) زيادة على الزكاة الشرعية. أما معاوية فأراد أن يجرب دهاءه مع أبى ذر فأرسل إليه فى خفية ألف دينار، ثم أوعز إلى الرسول فى الصباح ليستردها منه معتذراً بأن المقصود بها كان غيره، فلم يجد منها ديناراً بل وزعها أبو ذر على الفقراء، فعلم أن الرجل جاد فى دعوته، فلم يسع معاوية إلا أن يعمل على إرضائه بتسميته مال الدولة مال المسلمين، وإذاً فللمسلمين أن يرجعوا على الدولة فيما يحتاجون، ثم بحثوا عمن هيج أبا ذر بهذه الشدة فوجدوه ابن سبأ فأمسكوه وأتوا به إلى معاوية فطرده من الشام، فحط الرحال فى مصر فوجد فيها الظروف مواتية فأذاع فى الناس تعاليمه قائلاً: العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب أن محمداً يرجع والله تعالى يقول: (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) محمد سيرجع كما يرجع عيسى. ثم قال: محمد خاتم الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء ومن

أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ، إن عثمان أخذ الخلافة بغير حق ، وهذا وصى رسول الله فانهضوا فى هذا الأمر وحركوه وابدءوا بالطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر .

وجد عبد الله بن سبأ فى مصر مرتعاً خصيباً وهو عربى من يهود اليمن، قرأ كثيراً فى التوراة وخلط تعاليمها بالقرآن وتأول ما شاء، ثم اشتد فى دعوته وتبعه خلق كثير ، فجعل مركزه مصر يرسل منها رسله وكتبه إلى أشياعه فى العراق وهؤلاء يكاتبون غيرهم وهكذا حتى بلغ عثمان عدم رضا الناس عن ولاته ، وهنالك أخذت الثورة ترفع رأسها وتسوق الناس إلى الخطر، وقد ظهر بعد ذلك أن الثوار عند ما ذهبوا إلى المدينة كان معهم ابن سبأ يدبر لهم الخطط ويرسم لهم سبيل الفتنة .

أما أبو ذر فقد استمر فى دعوته بالشام يجمع الناس من حين إلى حين ويقول : يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء، بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاوٍ من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . فما زال كذلك حتى كاد الفقراء يثورون على الأغنياء، ولما ضاق به معاوية ذرعًا كتب إلى عثمان بذلك فكتب إليه عثمان : إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها فلم يبق إلا أن تثب، فلا تنكأ القرح وجهز أبا ذر إلىَّ وابعث معه دليلا وزوده وارفق به وكفكف الناس ونفسك ما استطعت ، فلما قدم أبو ذر المدينة قال له عثمان : ما لأهل الشام يشكون ذَرَبك ؟ فقال : إنه لا ينبغى أن يقال مال الله ، ولا ينبغى

للأغنياء أن يقتنوا مالا . فقال عثمان : يا أبا ذر علىّ أن أقضى ما علىّ ، وآخذ ما على الرعية ولا أجبرهم على الزهد ، وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد . قال : أفتأذن لى فى الخروج فإن المدينة ليست لى بدار؟ نخرج إلى الرَّبذَة نخط بها مسجداً وأقطعه عثمان قطعة من الإبل وأجرى عليه عطاء حتى مات .

ولا شك أن دعوة أبى ذر كانت رد فعل لما ظهر على أعيان الصحابة من واسع الغنى كما بينا فى الفصل السابق ، والظروف على عهد عثمان جرأت أمثال ابن سبأ أن يكيدوا للإسلام أمام أعين الحكام ، واستطاع ابن سبأ الذى ليس له فى الإسلام سابقة ولا فضل أن يزعزع الدولة من أطرافها وهو حر طليق ، ولم يفكر واحد من الحكام فى البصرة والكوفة ودمشق ومصر أن يقبض عليه ويبحث ما وراءه من أسرار وما يكتنفه من أغراض سيئة .

ولئن جاز لأبى ذر أن ينتقدَ البذخ والترف وكثرة اكتناز الأموال، لا يجوز أن يرغم الناس على انتزاع ما ملكت أيديهم . وهكذا اجتمع الخبيث والطيب : عبد الله بن سبأ وأبو ذر الغفارى ، وعمل كلاهما على إفساد النفوس وإيغار الصدور فتضافر دعاتهما فى الأمصار والمدينة على الخروج على سلطان الخليفة ، وأدى الأمر إلى إلقاء التبعة كلها على الخليفة عثمان . كل ذلك وعلى رضى الله عنه فى المدينة لا يدرى ما يعمل باسمه ابن سبأ ولا يعرفه من قبل .

٢ — المنافسة بين ذوى السبق وسائر العرب

كان عمر رضى الله عنه بثاقب رأيه قد منع القرشيين وكبار المهاجرين من الخروج إلى الأقاليم خشية أن تكون الأمصار الجديدة حقولاً خصيبة تنمو فيها العصبية وتعود الحمية الجاهلية سيرتها الأولى فتتنافس العشائر وتتجاذب كبارها ولاية المسلمين. فتصاب الوحدة العربية التى أسس الإسلام قواعدها بصدع يخر له بنيانها ويأتى على قواعدها.

ولقد كان عمر فى ذلك شديداً قاسياً حتى إن الرجل من المهاجرين ليستأذنه فى الغزو فلا يأذن له ويقول: قد كان لك فى غزوك مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ما يبلغك وخير لك من الغزو ألّا ترى الدنيا ولا تراك.

ولما ألقيت مقاليد الأمور إلى عثمان فك قيود الهجرة من المدينة، وخلَّى السبيل لمن يبغى مغادرتها. ولقد كان ذلك رأياً أدّاه إليه اجتهاده؛ إذ حسب من يذهب إلى الأمصار من كبار قريش أعواناً يدفع بهم عوادى الفتن عن المسلمين فى تلك الأمصار، ولكن الحوادث دلت على أن إخلاء السبيل لأعلام قريش بالمدينة أن يسيحوا فى الأرض ويقيموا حيث يشاءون — كان من العوامل التى ساعدت على انتشار الفتن وشد أزرها، إذ كانت فيهم جرأة على الحكام واعتزاز بما لهم من سابقة وصحبة ونسب، فالتف حولهم كثير من العامة وانقطعوا إليهم معتقدين أن ولاية الناس قد تكون فيهم وتؤول إليهم فيجدون أنفسهم إذ ذاك قد سبقوا غيرهم فى معرفة هؤلاء الولاة والتقرب منهم، فكان

انقطاع الناس إلى هؤلاء المهاجرين من المدينة سبيلا إلى إحياء ما أماته الإسلام من تكوين الأحزاب والتفاضل بالعصبيات .

وطبعى أن ذلك لا يكون إذا هم بقوا بالمدينة وحجزوا عن السير فى الأرض ، إذ أن المدينة ضيقة المجال لا تتسع لمؤامرة يقصد بها تعكير جو الخلافة . أما الأمصار ففيها كثير من العامة الذين يتهالكون على التقرب من هؤلاء القرشيين المهاجرين ويتدافعون على أبوابهم ، دع عنك أن الواحد من هؤلاء النازحين من المدينة لم يكن مديناً لغيره بفضل ولا مستكيناً لسواه ، وربما رأى أنه أجدر بالإمارة من أميره ، وهذا من غير شك وهن أصاب الجماعة ورجوع إلى حديث الجاهلية ، فرق شمل الأمة ونقض غزلها وأطلق لسان العامة فى الولاة دون تحرج أو خشية ، فقد روى أن أبا ذر رضى الله عنه كان يقول بالشام : « والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها والله ما هى فى كتاب الله ولا سنة نبيه صلى الله عليه وسلم . والله إنى لأرى حقاً يطفأ وباطلاً يحيا وصادقاً مكذباً وأثرة بغير تقى ، وصالحاً مستأثراً عليه » .

٣ — لين عثمان وتسامحه

كان عثمان رضى الله عنه ليناً رفيقاً سهلاً ، ولم يكن رجل عنف وشدة ، ولهذا كان يفر من معالجة الأمور بما تقتضيه من ضروب القسوة حباً فى العافية والسلامة ، وكان يؤثر دائماً أن تصلح الأمور باللين والحسنى ، وتلك خطة لا تحمد فى الولاة ، ومن بيدهم أمر الجماعة ، إذ كثيرٌ من

أمور الأمة لا يجدى فيها إلا الاعتصام بالشدة ، فلو أن عثمان أخذ العصاة بها وضرب على أيدى موقدى نار الفتنة حينما بدأت تطلع ألسنتها ، وقطع أسباب الشكوى لنجا ونجا معه المسلمون ولم يصبهم ما أصابهم ؛ ولكنه كان يؤثر العافية مهما كانت مغبتها ، ولقد جمع الولاة ليدلوا بما يرونه فى معالجة الأمر فلم ينزل على رأى أحد منهم ، ولم يأخذ برأى عبد الله بن عامر الذى أشار بحشد الناس فى المغازى حتى يذلوا ولا يكون هم الواحد إلا نفسه ، كما لم يأخذ برأى سعيد بن العاص الذى طلب إليه أن ينكل برءوس الفتنة وقادتها ، ولقد كان كلامه لهم بعد أن أدلى كل برأيه : « قد سمعت كل ما أشرتم به . ولكل أمر باب يؤتى منه . إن هذا الأمر الذى يخاف منه على هذه الأمة كائن ، وإن بابه الذى يغلق عليه ليفتحن فنكفكفه باللين إلا فى حدود الله ، فإن فتح فلا يكونن لأحد علىّ حجة ، وقد علم الله أنى لم آل الناس خيراً وإن رحى الفتنة دائرة ، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها ، سكنوا الناس وهبوا لهم حقوقهم ، فإذا تعوطيت حقوق الله فلا تُدْهنوا » .

ولقد نزل على رأى مفسدى الكوفة فولى من يريدون وكتب إليهم كتاباً إن دل على شىء فهو ضعفه وخروج الأمر من يده قال :

« أما بعد فقد وليت عليكم من اخترتم ، وأعفيتكم من سعيد والله لأفرضنّكم عرضى ولأبذلن لكم صبرى ، ولأستصلحنكم بجهدى ، فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يعصى الله فيه إلا سألتموه ،

ولا شيئاً كرهتموه لا يعصى الله فيه إلا استعفيتم منه ، أنزل فيه عندما أحببتم حتى لا يكون لكم عليّ حجة » .

وقد وجه مثل هذا الكتاب إلى الأمصار ، وتلك حال إن أثرت فى الكرام وهم قليل فهى من أقوى العوامل على تمرد اللئام وهم كثير .

هذه سياسة اللين التى انتهجها عثمان لنفسه والتى أذهبت هيبة الخلافة من القلوب ، وأين تلك من حزم عمر وشدته وضربه على أيدى المتعالين فى الأمة ، وهذا موقفه من سعد بن أبى وقاص صاحب وقعة القادسية : لقد اعتز سعد بمنزلته ، وخاض غمار الجماعة التى أحاطت بعمر فصدع جمعهم وتخطاهم ليصل إلى عمر قبلهم غير منتظر دوره ، ولكن عمر ضربه بدرته قائلاً : « جئت لا تهاب سلطان الله فى أرضه ، فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك » لهذا مضت أيام عمر أفقها صحو لم يلبد بغيوم الفتنة وعوامل الاضطراب .

٤ — ركود حركة الغزو :

فترت حركة الجهاد أيام عثمان فاستقر فى الأمصار المجاهدون من سائر العرب ومن لهم فى الغزو قدم .

تطلع هؤلاء إلى مناصب الدولة لأنهم يرون آثارهم فى الفتوح وأياديهم على الإسلام بادية ، وهم مع هذا يقولون : إن أولى الناس بأن يكونوا عضد الخليفة فى سياسة الناس وولاية الأمصار من كان لهم قدم صدق فى نشر الإسلام ورفع لوائه من كبار الصحابة والمهاجرين وذوى السابقة .

أنف هؤلاء من أن تُحْتَجن ولاية البلاد وأمثالها دونهم ، ويخص بها سواهم ممن لا يصلون إلى منازلهم ولا يجارونهم فى مزاياهم ، فأخذوا يكيلون لولاة عثمان التهم ويعيبون اختياره إياهم وإغضاءه عما يبلغه عنهم من ظلم وعدوان .

ومما جعل لهذه الحملة الشعواء أثراً سيئاً أن أنباءها وقعت موقع صدق وقبول من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فجعلوا ينقمون على عثمان إبقاء هؤلاء الولاة وعدم مؤاخذتهم وعزلهم .

كان ذلك كله أثراً من آثار انصراف الناس عن الجهاد ، فاتجهت الأحاديث فى الحروب ومواقعها والاستعداد لها إلى العمال والولاة ورميهم بما هم بريئون من أكثره إن لم يكن كله .

ولقد أحس عامل البصرة والبحرين عبد الله بن عامر حاجة الأمة إلى الغزو والجهاد حتى يشغل الناس عن تلك الفتنة ولا تكون همة أحدهم إلا نفسه فأشار على عثمان بذلك ولكن لم يرض .

ولا تنس هنا أن الخليفة كان خاضعاً لميول الرأى العام لا يبرم أمراً حتى يعرضه على بساط البحث مستشيراً كبار البارزين ممن حوله . وتلك خطة انتهجها عماله وحذوا فيها حذو الخليفة ، ففتحت الأبواب وأوسعت المجال لكثير من الشغب ، وتبرم الكثيرون بالحكم الذى لا يتفق وأغراضهم .

اتقدت نيران الغيرة فى بنى هاشم وغيرهم فأخذوا يعلنون حق على بن أبى طالب ويكيدون لبنى أمية الذين منهم الخليفة عثمان .

وما كان بعسير عليهم أن يشهروا بهم لإسقاطهم ، إذ كان بنو أمية آخر من آمن ، وكان مَن أدناهم عثمان منه ، وخصهم بعطفه من أوائل الذين ناوءوا الإسلام وحاربوه أول ما بدا ، فذكر الناس ما قاله الرسول فى هؤلاء واتخذوا من هذا القول سلاحا يطعنونهم به ، فضعفت فى الناس الثقة بالحكومة وانصدعت قريش وضعف نفوذها بانقسامها ، ففقد الخليفة قوة يستطيع أن يقضى بها على ما غمر الأمصار من التبرم والتذمر والفساد .

٥ — حب عثمان لأقاربه

اشتهر عثمان بحبه لأقربائه وبره بهم فولى كثيراً منهم الأمصار على حداثة أسنانهم وتخلفهم عن غيرهم فى المزية ووجود من يفضلهم سنا وسابقة ، وقد لا يكون فى ذلك من بأس ، لأن عثمان أنس من أقربائه الإخلاص وصدق المعونة ، ولأن منهم من أبلى بلاء حسناً فى فتوح الفرس وأفريقية ، ولكثير منهم كفاية ذاتية ، ولأنه قد ولى منهم قبله الرسول صلى الله عليه وسلم والخليفتان من بعده ، يدل على ذلك قوله لعلى بن أبى طالب وهو يحاوره فى أمرهم ويعيب عليه خطته فيهم : « أما والله لو كنت مكانى ما عنفتك ولا أسلمتك ولا عبت عليك ، ولا جئت منكراً إن وصلت رحماً وسددت خلة وآويت ضائعاً ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولى . ألم يول عمر المغيرة بن شعبة وهو نسيبه ؟ فلم تلومنى إن وليت عبد الله بن عامر فى رحمه وقرابته ؟ »

غير أن ما يؤخذ على عثمان فى أمر أقربائه مبالغته فى الثقة بهم حتى خصهم بمشورته ووثق بمن لا يستحق الثقة منهم ناسياً طبائع الناس وما جبلوا عليه من الغيرة وحب الذات والنفور من مجانبة المساواة التى أقرها الإسلام ونهج عليها الخليفتان قبله .

لقد كان قصر مشورته على أقربائه منفراً عظماء الصحابة كطلحة وسعد بن أبى وقاص وعائشة وغيرهم ممن كان عمر بن الخطاب لا يتعداهم ولا يغفلهم ، بل كان يجمع سكان المدينة لاستشارتهم جميعهم فى الأمور الخطيرة .

كيف يدع الاستعانة بأمثال هؤلاء ويولى عبد الله بن سعد الذى آمن ثم كفر ثم كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وادعى أنه لبَّس على المسلمين دينهم إذ كان يكتب القرآن بخلاف ما كان يأمره به الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ فمهما يتب أفينسى الناس له هذا ويعترفون له بحق الولاية عليهم ؟

لقد كانت سلامة فطرة الخليفة ونقاء ضميره وطهارة نفسه من عوامل حسن الظن بالناس ، وبخاصة أقرباؤه الذين أحبهم حباً جماً فملكوا عليه حواسه فركن إليهم وأولاهم ثقته التامة يستشيرهم ويستنصرهم فى الرأى وتدبير الأمر ، فأحفظ بذلك القلوب وجرأ عليه الناس ، فرموه بالتقصير ومجانبة العدل سراً وإعلاناً وأنزل بالأمة شراً مستطيراً فرقها أحوج ما تكون إلى جمع الكلمة والتفرغ لتدبير تلك الأقاليم المترامية الأطراف التى لا يزال الإسلام فيها غضاً .

وإن أكثر ما وجه إليه من اللوم إفراطه فى حب أقربائه وكان ذلك وسيلة إلى رقته عليهم وضعفه أمامهم ، وهذا ما قاله على بن أبى طالب لعثمان وهو يحاوره :

« سأخبرك أن عمر بن الخطاب كان إذا ولى شخصاً فإنما يطأ على رأسه ، إن بلغه عنه حرف جلبه إليه حتى بلغ به أقصى الغاية ، وأنت لا تفعل ، ضعفت ورفقت على أقربائك »

ولهذا كان عمال عمر يخافونه خوفاً عظيما . وعلى العكس من ذلك عمال عثمان . قال على بن أبى طالب لعثمان : « أنشدك الله هل تعلم أن معاوية كان يخاف من عمر أكثر من خوف يرفأ خادم عمر له » . ولقد بلغ من ضعف الخليفة أمام عماله أن منهم من كان يبرم الأمر ويقول للناس هذا أمر عثمان فيبلغه ذلك ولا ينكره . قال على بن أبى طالب يخاطب عثمان : « إن معاوية يقتطع الأمور دونك وأنت تعلمها فيقول للناس هذا أمر عثمان فيبلغك ولا تغيِّر عليه »

لا جرم أن ميل عثمان إلى أقاربه ومحاباته إياهم لم يخرجا به عن حدود الدين ولم يكن يصح أن يصلا بالشعب إلى هذا الحد من الثورة والانتقاض على الخليفة . فهذا الوليد قريبه اتهم بشرب الخمر فلم يكتف بعزله بل نفذ فيه حكم الله وجلده . وهذا قوله وهو يخطب بعض الوفود المعترضة عليه : « وقالوا إنى أحب أهل بيتى وأعطيهم : فأما حبى فإنه لم يمل معهم على جور بل أحمل الحقوق عليهم »

ولقد نتحاكم إلى الحقائق التاريخية المجردة لترينا أن عثمان لم يكن

مسلكه فى إسناد المناصب إلى أقربائه مما يملأ القلوب حنقاً وغيظاً ويحمل الشعب على أن يخرج عليه ذلك الخروج الذى أدى إلى تلك الفجيعة الإسلامية بقتله .

كان معاوية حاكم الشام أحد أقارب عثمان إلا أنه عين فى عهد عمر ثم استمر فى حكمه فى عهد عثمان . أما النزاع فى شأن ولاية الكوفة فكلنا يعلم أن سعداً (فاتح بلاد الفرس) عين حاكما على تلك البلاد فى عهد عمر ، ثم استدعاه من جراء شكوى هينة وجعل المغيرة خلفاً له وقد أبدى عمر وهو على فراش الموت رغبته فى إعادة سعد إلى منصبه. ومن أجل ذلك أعاده عثمان إلى الحكم مرة ثانية واستدعى المغيرة ، ومما يؤسف له أن حدث نزاع بين سعد الحاكم وابن مسعود خازن بيت المال فى الكوفة ، وذلك أن سعداً اقترض من بيت المال ، ولما حان الأجل طلب إليه ابن مسعود أن يؤدى إلى بيت المال ما اقترضه، ولكن سعداً لم يتيسر له إذ ذاك دفعه فاشتد بينهما النزاع واحتدم الجدال فكان ذلك سبباً فى توتر العلاقات بينهما وفى انقسام الكوفة قسمين أحدهما يعيب على سعد إبطاءه ، والآخر ينكر على ابن مسعود قسوته وشدته ، فغضب عثمان لذلك وعزل سعداً وجعل الوليد بن عقبة خلفاً له وهو أحد أقاربه من جهة أمه ، ومن المسلم به أن الوليد هذا عين سنة ٢٥ هجرية وهى السنة الأولى من حكم عثمان .

وقد أجمع الناقدون والمؤرخون على أنه لم يقع منه خِلَالَ ستٍّ السنوات الأولى ما يسوغ توجيه النقد إليه ؛ إذ كانوا يرون رائده تحرى

المصلحة العامة وإسناد المناصب إلى الجديرين بها لا فرق بين قريب وبعيد .

وها نحن أولاء قد علمنا أنه لما اتهم الوليد بشرب الخمر عزله وجلده . أضف إلى ذلك أنه لما ولى مكانه سعيد بن العاص قريبه ولم يحسن سياسة أهل العراق وطلبوا عزله أجابهم إلى طلبهم وعين فى مكانه أبا موسى الأشعرى .

وأما تعيينه عبدالله بن سعد حاكماً بمصر بدلا من عمرو بن العاص فشفيعه فى ذلك ما بلغه عن عمرو من الخروج عن جادة الطريق المستقيم وما كان عليه عبد الله من رجاحة عقل وشجاعة نادرة ظهرتا فى انتصاراته بأفريقية وفى بلائه الحسن فى تكوين أسطول قوى للمسلمين ، ومع هذا فإن المصريين لما تألبوا على عبد الله بن سعد وطلبوا عزله لم يتمسك به عثمان وعين بدله محمد بن أبى بكر .

من ذلك يتبين أن عثمان سلك مسلكه هذا فى تعيين أقاربه لا عن محاباة ولكن لكفايتهم واطمئنانه إلى جانبهم بدليل أنه لم يتردد فى عزل من حامت الشبهة حوله منهم .

على أننا لا نرى من حرج فى أن نقول إنه كان الأحجى بعثمان رضى الله عنه أن يتبع خطة من سبقوه فى إعراضهم كل الإعراض أو أغلبه عن إسناد المناصب إلى أقاربهم وفى اختيارهم الولاة من غيرهم من المشهود لهم بالكفاية — وهم كثيرون — منعاً لقالة السوء وقضاء على

تدابير الحاقدين والحاسدين الذين تلمسوا فى عهد عثمان أوهى الأسباب فأشاعوا الامتعاض والتبرم بأمر الخليفة .

ولقد يخلق بالناقدين من ذوى النزاهة أن يعلموا أنه ليس من الإنصاف – وقد مضى على عهد عثمان وصحبه ثلاثة عشر قرناً – أن يقسو حكمنا عليهم وقد كانوا طلائع الإسلام ودعاته تحفهم كثير من الصعاب والمشاكل والمخاطر ، وتحوطهم ملابسات حملتهم على أن يديروا دفة السفينة الإسلامية ويوجهوها إلى الجهة التى يرون فيها السلامة ولقد يؤيد ما ذهبنا إليه من ضرورة التحفظ والقصد فى الحكم على عثمان رعاية لما قد أحاط به من الملابسات ، أن علياً ما لبث بعد أن تولى الخلافة حتى اتبع سياسته بعينها ، فلم ير بأساً من إسناد مناصب الحكم إلى أقاربه من بنى هاشم . وأغلب الظن أن الحال وقتذاك كانت تستدعى اتباع هذا المسلك أو أن الذين اختيروا كانوا أحسن من يرجى فيهم الخير .

٦ — انحراف أهل المدينة

كان بالمدينة من المهاجرين والأنصار رجال لو أنهم آزروا عثمان وهبوا سراعاً لنجدته لدفعوا عند ذلك العدوان الذى أصاب الخلافة فى مقتلها ، ولكنَّ ما وصلهم من الأنباء عن أعمال عثمان التى رأوا فيها مغايرة لسيرة الخليفتين فى سياسة الناس وخروجا عما رسمه الدين ، مهد السبيل إلى ظهور العصبية الجاهلية بينهم تحت شعار مناصرة الخلافة

ووجوب إسنادها إلى من يضطلع بأعبائها ويرعاها حق رعايتها فكانوا لذلك شيعاً ؛ فمنهم قوم من بنى أمية مالوا إلى عثمان ومؤازرته ، ومنهم قوم من بنى هاشم رأوا أنهم أحق بالخلافة فتعصبوا لعلى ، وقال الأنصار إن المهاجرين عامة قد سلبوهم حقهم واستولوا على الرياسات كلها دونهم .

كل ذلك كان سبباً فى أن وقف أكثر أهل المدينة من عثمان موقف صمت وحياد ، بل وجنح فريق منهم إلى تنحى عثمان عن الخلافة وآزر الثائرين فى الأقاليم فكتب إليهم : « اقدموا علينا فإن الجهاد عندنا » وتواعدوا شوال يقدمون فيه إلى المدينة مظهرين رغبة الحج .

اجتمع المتحرفون بالمدينة كما اتفقوا وقد اختلفت أهواؤهم فيمن يلى الخلافة بعد عثمان ، فمال الكوفيون إلى الزبير والبصريون إلى طلحة والمصريون إلى على . وذهب من كل جماعة وفد إلى من مالوا إليه وعرضوا عليه ما أرادوا فردوهم رداً عنيفاً ، ولما علم عثمان بأمرهم وسّط علياً ليصرفهم عنه وانتهى الأمر برجوعهم إلى أوطانهم .

٧ — أمور أخرى نسبت إلى عثمان رضى الله عنه

ومما أخذه الناس على عثمان أن زاد نداء آخر على أذان الجمعة بسبب كثرة المسلمين وتباعد أطراف المدينة ، وإتمامه الصلاة فى منى وعرفة ، وقد كان الأمر على القصر فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخليفتين

من بعده وأنه حمى الحمى حول المدينة[١] إلا عن بنى أمية ، ورد الحكم بن أبى العاص طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وأعطاه مائة ألف درهم، وأعطى ابن أبى السرح ما أفاء الله عليه، وتنازل لمروان بن الحكم عن خمس مغانم فى إفريقية ، وأعطى أبا سفيان بن حرب مائتى ألف درهم ، وزوج الحارث بن الحكم بنته عائشة وأعطاه مائة ألف ، وتطاول فى البنيان حتى عدوا سبع دور بناها فى المدينة لزوجه ولبنته ولغيرهما من أهله . وضرب عبد الله بن مسعود حتى كسر ضلعا من أضلاعه ، وضرب عمار بن ياسر حتى فتق بطنه وغشى عليه فجردوه وطرحوه على باب الدر وهو من الذين أوذوا فى مبدأ الإسلام وقال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عمار ملئ إيمانا من فرْقه إلى قدمه » ونفى أبا ذر رضى الله عنه إلى الرَّبَذة .

وهذا دفاع عثمان عن نفسه ودحض ما نسب إليه من أمثال ما ذكر؛ خطب بعض الوفود المعترضة عليه فقال :

« إن هؤلاء — يعنى المعترضين — ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذى علمتم ، إلا أنهم زعموا أنهم يذكرونها ليوجبوها علىَّ عند من لا يعلم . وقالوا أتم الصلاة فى السفر وكانت لا تتم . . . ألا إنى قدمت

---

(١) قد أنكر الثائرون على عثمان رضى الله عنه حمايته لأرض كانت للناس عامة ، فخصها بابل الصدقة ، ثم قرءوا عليه قوله تعالى : « قل أفرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا » وقالوا له : أرأيت ما حميت من الحمى ؟ آلله أذن لك أم على الله تفترى ؟ فقال : إن هذه الآية نزلت فى كذا وكذا . وأما الحمى فقد حمى الأئمة قبلى لإبل الصدقة . فلما زادت إبل الصدقة زدت فى الحمى . وجاء فى البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم حمى النقيع وأن عمر بن الخطاب حمى السرف والربَذَة .

بلداً فيه أهلى فأتممت أو كذلك ؟ قالوا : اللهم نعم ، وقالوا : وحميت حمى وإنى والله ما حَمَيْتُ إلا كما حَمى مَن قبلى ، والله ماحموا شيئاً لأحد ، ما حموا إلاما غلب عليه أهل المدينة ثم لم يمنعوا من رعيته أحداً ، واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها و بين أحد تنازع ، ثم ما منعوا ولا نحوا منها أحداً ، وما لى من بعير غير راحلتين وما لى من ثاغية ولا راغية ، وإنى قد وليت وإنى أكثر العرب بعيراً وشاء فما لى اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجى أكذلك؟ قالوا : اللهم نعم ، وقالوا إنى رددت الحكم وقد سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم والحكم مكى سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى الطائف ثم رده رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسول الله صلى الله عليه وسلم سيره و رسول الله رده ، أكذلك ؟ قالوا : اللهم نعم . وقالوا استعملت الأحداث ؟ ولم أستعمل إلا مجتمعاً محتملا مرضياً وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنهم وهؤلاء أهل بلدهم . ولقد وَلَّى من قَبْلى أحدث منهم وقيل فى ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أشد مما قيل لى فى استعمال أسامة أكذلك ؟ قالوا : اللهم نعم وقالوا إنى أعطيت ابن أبى سرح ما أفاء الله عليه وإنى إنما نفلته خمس ما أفاء الله عليه من الخمس ، فكان مائة ألف وقد أنفذ مثل ذلك أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك فرددته عليهم وليس ذاك لهم ، أكذلك ؟ قالوا : نعم . وقالوا إنى أحب أهل بيتى وأعطيهم ، فأما حبى فإنه لم يَمِل معهم على جور بل أحمل الحقوق عليهم . وأما إعطاؤهم فإنى أعطيهم من مالى ولا أستحل أموال المسلمين لنفسى ولا لأحد من

الناس ، ولقد كنت أعطى العطية الكبيرة من صلب مالى أزمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما وأنا يومئذ حريص شحيح ، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتى وفنى عمرى وودعت الذى لى فى أهلى قال الملحدون ما قالوا ، وإنى والله ما حملت على مصر من الأمصار فضلا فيجوز ذلك لمن قاله ولقد رددته عليهم وما قدم على إلا الأخماس ولا يحل لى منها شىء ، فتولى المسلمون وضعها فى أهلها دونى ، ولا تبلغت من مال الله بفلس فما فوقه وما أتبلغ منه . ما آكل إلا من مالى ، وقالوا أعطيت الأرض رجالاً ، وإن هذه الأرضين شاركهم فيها المهاجرون والأنصار أيام افتتحت ، فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة أهله ومن رجع إلى أهله لم يذهب ذلك ما حوى الله له ، فنظرت فى الذى يصيبهم مما أفاء الله عليهم فبعته لهم بأمرهم من رجالٍ أهل عقار ببلاد العرب فنقلت إليهم نصيبهم فهو فى أيديهم دونى[1] .

٨ — الفتنة تتحرك

كانت مصر مقر الفتنة التى أريد بها قلب الخليفة عثمان وسببت للإسلام القلق والمسلمين الاضطراب ، بثت فيها دعوة ابن سبأ وشايعها أنصار آخرون من مختلف الأمصار وبخاصة البصرة والكوفة ، ولكن المدينة حاضرة الدولة سلمت من التأثر بدعوة ابن سبأ ، غير أنه استطاع أن يستميل إليه اثنين من رجالها وهما محمد بن أبى بكر ومحمد بن أبى حذيفة

---

(١) ص ١٠٢ ، ١٠٣ ج ٥ من ابن جرير

لحداثتهما . ولما فى نفوسهما من السخط على إدارة عثمان، ولأنهما كانا قد تشاجرا فى مصر مع عاملها عبد الله بن سعد أخى الخليفة فى الرضاعة .

تأثرت الأمصار بمصر ، وسايرتها فى الانتقاض على عثمان فأخذت تتحين الفرص للقيام بالثورة ، من ذلك أن أهل الكوفة وجدوا فى تغيب حاكمها سعيد بن العاص ووجوده عند الخليفة فرصة للقيام بحركتهم ، فأخذوا يدَّعون بين الناس أن سعيداً ذهب إلى الخليفة لينقص عطاءهم ، وليس لهم سبيل إلا أن يذهبوا إليه يطلبون التخلص من سعيد هذا . وبينما كان وفدهم فى طريقه إلى عثمان قابلهم سعيد بن العاص راجعاً إلى الكوفة فأبدوا نفورهم منه وقتلوا خادمه وأعلنوا رغبتهم فى أبى موسى الأشعرى ، فقال عثمان قد أثبتنا أبا موسى عليهم ، والله لا نجعل لأحد عذراً ولا نترك لهم حجة ولنصبرن كما أمرنا حتى نبلغ ما يريدون »

كان موقف عثمان إزاء هؤلاء المحرضين الثائرين ضعيفاً إذ خرج من الضرب على أيديهم ومعاقبتهم عقاباً شديداً إلى مسالمتهم ومصالحتهم بعزل سعيد وتعيين أبى موسى الأشعرى خلفاً له . وعلى الرغم من أن أبا موسى الأشعرى حاول حملهم على الولاء والإخلاص للخليفة فإن دعاة السوء أخذوا يعملون على إثارة الأهلين ضده فى هدوء وسكينة .

٩ — التحقير فى الظلمات : أو العاصمة تتلقى الظلامات

ازداد نفور الثوار تدريجاً واتخذوا التشهير بحكام الخليفة وتشويه سمعتهم وإلصاق الظلم بهم وسيلة إلى تضليل الجماعات والتغرير بها

وانسجامها فى هذا التعسف . أخذ سيل الشكاوى ينحدر إلى العاصمة من البصرة والكوفة ومصر ، وعلى الرغم من مجانبة كثير منها للواقع إن لم تكن كلها فقد كانت محكمة بحيث تكفل للمتآمرين أن يظهروا بدعوتهم فى صورة تشبه الحقيقة . ولهذا تأثرت المدينة بتلك الشكاوى ونالت من نفوس الصحابة ، حتى إن بعضهم أخذوا يرتابون فى ولاة عثمان لأنه لم يكن لديهم ما يدفعون به الباطل منها أو يميزون بين الحق وغيره ، فلم يكن أمامهم إلا أن يلجئوا إلى الخليفة طالبين منه أن يعالج الحالة ، فأخبرهم بناء على ما ورد إليه من تقارير الولاة أنهم لم يجانبوا الصواب ولم يجنحوا إلى الخطإ فى أعمالهم وسياسة الولايات التى يقودون زمامها . ثم عقد لذلك مجلساً قرر أن يرسل بعض الرجال الموثوق بهم إلى البصرة والكوفة ودمشق ومصر حيث يطلعون على حالة الأقاليم ويعرفون مصدر تلك الظلامات وما هى عليه من حق وباطل . فاختار عبد الله بن عمر وأسامة بن زيد ومحمد بن مسلمة وعمار بن ياسر .

أما عمار فقد توجه إلى مصر وكان حاكمها مبغضاً من المصريين لا يجدون حرجاً فى رميه بكل نقيصة ، واستطاع أتباع ابن سبأ بحذقهم ومهارتهم فى ذلك الجو المكفهر أن يخدعوه بزخرف القول وزوره وكان مع هذا فى نفس عمار شىء من عثمان لأنه نفذ فيه حكم الله لما تقاذف هو والعباس بن عتبة بن أبى لهب ، ولهذا لم يعد إلى الخليفة ، ولم يطلعه على شىء مما رأى ومال إلى اتباع ابن سبأ .

وأما الوفود الثلاثة فقد أخبروا الخليفة أن هذه الظلامات كاذبة

ودحضوا ما نسب إلى الولاة من مجاوزة للحق وظلم للناس وأجمعوا على أنهم يرعون الولاية حق رعايتها .

١٠ — المؤتمر بالمدينة

لم يكتف الخليفة بذلك بل أرسل إلى الناس فى الأقاليم يخبرهم أنه سيجمع الولاة بالمدينة فى موسم الحج القادم ، فمن كانت له ظلامة فليرفعها إلى الخليفة حينئذ ، وذلك للرغبة منه فى القضاء على تلك الظلامات ، وأن يقسط بين الناس حتى تنقشع سحب تلك الفتنة ، وترتد سيوف الكائدين إلى نحورهم .

ولما حضر الولاة ولم يكن قد تقدم أحد من الناس بظلامته أخذوا يقلبون وجوه الرأى فى معالجة الحال وأدلى كل برأيه ، فرأى عامل الكوفة سعيد بن العاص التنكيل بقادة الفتنة وزعمائها . ورأى عامل البصرة والبحرين عبد الله بن عامر أن يشغل الناس بالغزو ، ورأى عامل دمشق معاوية بن أبى سفيان أن يقوم كل وال بما يراه من ضروب القضاء على تلك الفتنة وإخماد جذوتها ، ورأى عامل مصر عبد الله بن أبى سرح أن يفاض عليهم من المال ما يطفىء جذوة الحقد من نفوسهم ويجعلهم يلتفون حول الخليفة . ولقد أعرض عثمان عن هذه الآراء جميعها وانفض المؤتمر عن غير نتيجة حاسمة ، وهذا ما حمل معاوية على أن يوجه نظر عثمان إلى ما قد يخبئه الغيب من شر شامل وخطر جسيم ، وعرض عليه أن يرسل إليه من قبله جنداً يناصرونه ، أو أن يذهب

معه إلى دمشق وهناك من الأنصار والرجال من يحمونه ويصدون عنه كل عدوان . ولكن الخليفة أبى إلا أن يبقى بالمدينة ، وإن كان فى ذلك حتفه .

١١ — اجتماع المتمردين عند المدينة

طلب الخليفة إلى الولاة الاجتماع به لبحث ماعسى أن يرفع إليه من ظلامات . فانتهز الثائرون تلك الفرصة واتفقوا على أن يشعلوا نار الثورة بعد أن يغادر الولاة ولاياتهم ، وتخلو مقار الحكم ؛ ولكن الولاة رجعوا قبل أن يستقر الثائرون على خطة فأفلتت الفرصة من أيديهم وأخفقت محاولتهم الخروج فتواعد الزعماء والأشياع بمصر والبصرة والكوفة على أن يكونوا بالمدينة ، معلنين سفرهم بأنهم داعون إلى الله والعمل بسنة نبيه ، وأنهم سيقفون الخليفة على ما نسب إليه وإلى ولاته من أمور أنكروها عليهم ، وهناك قابلهم الخليفة وتحدث إليهم فيما أخذ عليه مبيناً أنه لم يعْدُ فيه سبيل الدين ، فرجعوا إلى أمصارهم بعد أن أخفقوا فى استمالة أهل المدينة إليهم وضمهم إلى صفوفهم .

كان موقف أهل المدينة من عثمان إذ ذاك موقف دفاع ، وكثيراً ما حرضوه على أخذ هؤلاء الزعماء بالشدة وقتلهم ؛ ولكن عثمان أبى إلا أن يجادلهم بالتى هى أحسن وأن يعفو عنهم ، فربما كان ذلك أجدى فى إسكان ريح الفتنة واستلال الأحقاد من نفوس الكائدين .

لم يجد عمل عثمان هذا ولما استيئسوا من مناصرة أهل المدينة

اتفقوا على أن يدخلوها على حين غفلة من أهلها ، وإذ ذاك يستطيعون أن يفعلوا ما يريدون .

من هذا يتجلى أن التمرد قد بلغ درجة عظيمة من الخطورة ، فلو أن الأمر لم يكن يعدو تقديم المظالم لم تنزح هذه الجماعات المغامرة من أمصار متنائية ، ولم تصل إلى المدينة كلها فى وقت واحد على بعد الشقة بين هذه الأمصار الثلاثة : البصرة والكوفة ومصر .

وبدهى أن ذلك تم بتدبير سابق محكم ، وقد دلت الحوادث على أنهم كانوا إذا أخفقوا فى خطة لجئوا إلى غيرها فى عزم وقوة ، ولهذا وفدوا إلى على وعرضوا عليه ولاية أمر المسلمين رغبة منهم فى أن يرحب بهم ويعاونهم على عثمان ، ولكن علياً كان أنبل من أن يشجع هذا العمل الدنىء فخيب ظنونهم وطردهم ؛ بل كان أول من أصلت سيفه للدفاع عن الخليفة . وكذلك باءوا بالخيبة عندما ذهبوا إلى طلحة والزبير يعرضون عليهما الأمر ويستنصرونهما .

عند ذلك طلبوا من الخليفة استدعاء حاكم مصر وتعيين محمد بن أبى بكر خلفاً له ، وبذلك ينصرفون إلى أوطانهم ، فأجيبوا إلى ما طلبوا وغادروا المدينة مظهرين اكتفاءهم بذلك .

١٢ — دخول المتمردين المدينة

اطمأن أهل المدينة إلى انصرافهم فافترقوا ظناً منهم أن الأمر قد انتهى ؛ ولكن ما كان أشد دهشتهم عندما باغتهم هؤلاء الثائرون

مكبرين فى أرجائها محيطين بعثمان منادين : « من كف يده فهو آمن »

شمل المدينةَ الفزعُ فأعرض الناس عن مناوأة هؤلاء الأشرار ولزموا مساكنهم ؛ ولكن علياً ذهب إليهم فى جماعة من أصحابه وسألهم عن سبب رجوعهم ، فقال المصريون جاءنا كتاب الخليفة إلى والى مصر يأمره بقتلنا ويثبته فى ولايته بعد أن وعدنا بعزله . وقال من معهم من جماعات البصرة والكوفة : ونحن جئنا لمعونة إخواننا وحمايتهم . فقال على : وكيف علم أهل البصرة والكوفة مالقيه المصريون والقوم على مراحل ؟ لا بد أن يكون هذا الأمر قد أبرم بالمدينة قبل مغادرتكم إياها ، فقالوا : « صفوه كيف شئتم ، لا حاجة لنا فى هذا الرجل ، ليعتزلنا » .

وضح موقف الثائرين عندئذ وانكشفت نياتهم ؛ فإن عودة المصريين بسبب ذلك الكتاب يمكن أن تكون معقولة ، ولكن الذى لا يقبله العقل رجوع جماعات البصرة والكوفة بعد أن اتجهوا إلى جهات مختلفة وأوغلوا فى السير قاطعين مراحل شاسعة .

ويظهر أن العصاة لما وجدوا من أهل المدينة استعداداً للدفاع عن خليفتهم وأخفقوا فى استمالتهم إليهم ركبوا متن الخديعة فأعلنوا اطمئنانهم وارتياحهم لقول عثمان وغادروا المدينة على ألا يعودوا حتى يستنيم أهل المدينة وينفضوا من حول الخليفة .

ولكنهم كانوا فى الواقع مصممين على العودة منتحلين سبباً آخر غير الذى عرضوه أولاً : ذلك أنهم خلقوا مسألة الخطاب زوراً وبهتاناً ،

فإنه لوكان الخطاب حقاً لأتى به إلى المدينة جماعة المصريين وحدهم ، ولكن ظهور البصريين والكوفيين معهم بعد أن افترقوا بمراحل دليل حيلة مدبرة ومتفق عليها من جميعهم . على أن المصريين لوأرادوا إطلاع إخوانهم البصريين والكوفيين على الكتاب ما تسنى لهم أن يصلوا إليهم إلا عن طريق المدينة ، ولوفعلوا لوصلوا المدينة فى الوقت الذى يكون الفريقان الآخران قد وصلوا فيه إلى مقارهم وبلادهم . فمن المحال إذاً أن يجتمع الوفود الثلاثة مرة ثانية بالمدينة إلا إذا كان هذا عن تدبير سابق واتفاق مبرم ؛ ولهذا يمكن أن يقال : إن زعماء الجماعات زوروا الخطاب واتفقوا أن يدخلوا المدينة جميعهم فى وقت واحد ؛ أما أن الخطاب يحمل خاتم الخليفة فأمر ميسور لأن فى الإمكان تقليده ، وهذا هو اعتذار عثمان حينما اطلع على الخطاب ، والقول بأن حامل الخطاب كان من خدم عثمان ، وأن مروان هو الذى كتبه دون أن يعلم الخليفة لا يقوم عليه دليل فهو مجرد ادعاء ، وقد طلب إليهم الخليفة البينة على ذلك فما استطاعوا إليها سبيلاً ، وكان إحضار الخادم ليدلى بأقواله حتى يلقى على ذلك الخطاب نوراً يستبين الأمر على ضوئه أقل ما يجب عليهم ؛ إلا أن ذلك لم يكن ، ولما عجزوا عن البينة أكد لهم الخليفة بالأيمان أنه ما كتب هذه الرسالة ولا علم له بها عملاً بالحديث الشريف « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » .

كان هذا الحلف الذى صدر من خليفة المسلمين كافياً لتبرئته مما نسب إليه بعد أن عجز الثائرون عن إثباته بالبرهان القاطع ،

ولكنهم استبدوا وقالوا : سواء أكنت أنت الكاتب لهذه الرسالة أم كان غيرك فأنت فى الحالتين لاتصلح للحكم فاخلع نفسك وإلا قتلناك . فقال عثمان : أما الموت فلا أخافه ولا أخشاه ، وأما الخلافة فلم أكن لأخلع سربالاً سربلنيه الله .

وإذا كان الكتاب من عمل مروان أو غيره من بطانته — كما جاء فى بعض الروايات التاريخية — فهو تصرف ممن يلون الأمر بين يدى عثمان للقضاء على الثورة بالفتك بقادتها والتنكيل بهم من غير رأى من عثمان أو علم منه . والحق فى أمر هذا الكتاب أن عثمان براء منه ، وأن موقفه من الثائرين فى مسألته موقف سليم لا يرقى إليه الشك .

١٣ — إيذاء الخليفة وحبسه فى منزله

قوى أمر العصاة بالمدينة وقبضوا على ناصيتها ، غير أن الخليفة وصحبه كانوا لا يزالون يختلفون إلى المسجد لإقامة الصلاة وتأديتها فى أوقاتها ، وفى يوم قام الخليفة فى المسجد ليخطب الناس . فهب الثوار فى وجهه ومنعوه الكلام واعتقلوا أنصاره خشية أن يمزق ستار جريمتهم فى خطابهم المزور فينكشف أمرهم وينفض الناس من حولهم ويولوا الأدبار خائبين .

ولما جاء يوم الجمعة وحضر وقت الصلاة قام يخطب الناس حاضاً العصاة على الخضوع والطاعة ومذكراً لهم بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن الذين يعسكرون هنا — فى تلك الأماكن — تنزل

عليهم لعنة الله » . وكانت جماعات من العصاة قد عسكرت فى تلك الأماكن المعلومة التى عناها الرسول بقوله هذا . عند ذلك علا ضجيجهم وصخبهم داخل المسجد وأثاروا الشغب والاضطراب وأجلسوا من هب من كبار الصحابة لشد أزر الخليفة كزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة ، وجعلوا يرجمون الخليفة وأنصاره بالحجارة حتى خر مغشياً عليه فنقل إلى داره حيث بقى محبوساً فيها لايبرحها لاشتداد الحصار واستفحال أمر الثوار ، وقد وقف نفر من المسلمين بباب الدار ليصدوا عن الخليفة هجمات الثائرين ، من بينهم على وطلحة والزبير ، وقد كان الحصار شديداً حتى إنهم منعوا عنه الماء ، وعبثاً حاول على أن يستميلهم بقوله : « يأيها الناس إن الذى تصنعون لايشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين ، لاتقطعوا عن هذا الرجل الماء ، فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقى وما تعرض لكم هذا الرجل فلم تستحلون حصره وقتله ؟ » وعبثاً حاولت أم حبيبة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم أن توصل إليه الماء ، ولقد تلقاها العصاة بالأذى وكادوا يقتلونها ، ولولا أن الماء كان يأتى عثمان خلسة من دار آل حزم لمات عطشاً .

ولقد أطل عليهم عثمان إذ ذاك وتحدث إليهم بحديث يذيب ميت القلوب فما أبهوا لقوله وما أجابوا دعوته ، قال بعد أن سلم عليهم فما ردوا عليه السلام : أنشدكم الله هل تعلمون أنى اشتريت بئر رومة من مالى فجعلت رشائى منها كرشاء رجل من المسلمين ؟ قالوا : نعم ، قال : فما يمنعنى أن أشرب منها ؟ ثم قال : أنشدكم الله هل علمتم أنى اشتريت

كذا وكذا من الأرض فزدته فى المسجد؟ قيل نعم . قال : فهل علمتم أحداً من الناس مُنِع الصلاة قبلى ؟

١٤ — كراهية أهل المدينة لسفك الدماء

وقف أهل المدينة من العصاة الثائرين موقف صمت وسكون ، أفكان هذا عن عجز منهم وقصور عن أخذ الثائرين بالشدة حتى يولوا الأدبار ؟ أم كان ذلك لأنهم راضون غير ساخطين ؟ أم لأن العصبية مزقت شملهم وجعلتهم فرقاً وأحزاباً كل يرى ما لايراه الآخر ؟

لقد فعلت العصبية الجاهلية فى أهل المدينة فعلها وخلقت فيهم من يميلون إلى الإمام على من بنى هاشم ، ومن يشايعون عثمان من بنى أمية ، ومن ينظرون إلى المهاجرين والأنصار نظرة المعتدَى عليهم باحتجان العمل فى مناصب الدولة دونهم ، ففقدوا بذلك روح التعاون وتصدعت جماعتهم ، وكان لذلك التصدع أثره فى التزامهم الحياد ووقوفهم أمام العصاة صامتين ، وليس ببعيد أن يكون لكل أولئك أثر فى هذا الموقف السياسى من أهل المدينة . علىَ أن منهم من وقف بباب عثمان مستميتاً فى الذود عنه كأبناء طلحة والزبير وعلى والغباس ، ولكن عثمان نهى عن استعمال الحسام ومقاتلة الثائرين ضناً بدماء المسلمين أن تراق على بابه من أجله ، ولوأن الأمر لم يكن كما ذكر لاستطاعت المدينة أن تقضى على الثائرين وتحول دون وقوع تلك الفجيعة التى اضطرب لها حبل الإسلام ومزقت شمل المسلمين وفتحت عليهم باب شر شامل وبلاء عظيم .

١٥ — الحج السنوى

قرب موسم الحج إلى مكة والحال كما ذكرنا وعلى الرغم من حصار عثمان الشديد وحبسه فى داره ، فقد كان شديد الحرص على القيام بشئون رعيته ، فجعل عبد الله بن عباس رئيس الحج وأمره أن يستحث الناس على أدائه ، كما أرسل إلى الناس فى الحج شارحا ما يحيط به من ضروب الشدة والحصار ظلماً وعدواناً ، وطلب إليهم وإلى الولاة أن يزاولوا إصلاح الحال دون أن يريقوا قطرة واحدة من الدماء .

١٦ — قتل عثمان فى ١٨ من ذى الحجة سنة ٣٥ هجرية ٧ يونيه سنة ٦٥٦ م

انتهز الثائرون خلو المدينة من أهلها وخشوا إن توانَوا وتمهلوا أن يعلم الناس بمكة ما حل بخليفتهم فيلبوا دعوته لمناصرته ويخفوا مسرعين إلى نجدته ودرء الشر عنه ، وحينئذ تحبط أعمالهم وقد دنا جناها ، وتطفأ حركتهم وقد وصلت أشدها ، فاندفعوا إلى دار الخليفة محاولين اقتحام بابها للقضاء عليه ، فكان الحراس أشد بأساً مما يظنون فردوهم على أعقابهم . وبينما يحاول بعض الثائرين ولوج الباب ويقوم أنصار الخليفة بردهم تسلل نفر منهم إلى منزل مجاور وتسوروه ، ومنه وصلوا إلى عثمان ، وكان وقتذاك جالساً جلسة وقار وهيبة تنبئ عن السلام والبراءة يقرأ القرآن بين أسرته فى مصحف على حجره .

كان لهذا المنظر الرهيب أثره فى نفوس الثائرين فساورهم الإحجام

عن تلك التى اندفعوا إليها ، ولكن وسوسة الشيطان تغلبت على أثر
هذا المنظر فبددت كل خشية من نفوسهم ، ولقد تقدم محمد بن أبى بكر
وأمسك بلحية الخليفة ، فقال له : يابن أخى لو كان أبوك حياً لعرف كيف
يعامل ذلك الشعر الذى تمسك به الآن . فاستحيا ابن أبى بكر ورجع
إلى الوراء ، وهنا هجم من معه من القساة وطعنوا الخليفة بسيوفهم وهو
أعزل لا حول له ولا قوة ، وتقدمت زوجه للدفاع عنه وحمايته فقطعت
أصابعها ، وقتل خادمه ، وانجلت المعركة عن موت عثمان مضرجًا بدمائه
وكان عمره إذ ذاك ٨٢ سنة .

أخذ العصاة يعيثون فى المنزل وهجموا على بيت المال فلم يجدوا
فيه شيئاً لأن عثمان لم يكن يدخر مالاً ، بل كان ينفقه فى المصالح العامة
للمسلمين .

وقع هذا الخبر على من بالمدينة وقوع الصاعقة ورأوا أن قد أخذت
عليهم السبل وقضى الأمر ، فما انفكوا عن التزام السكون ، ودفن
عثمان فى اليوم الثالث من مقتله .

جهد الصحابة عامة وعلى رضى الله عنه خاصة في إخماد الفتنة

لعلك تعجب كيف غلت مراجل الفتنة واضطربت أحوال الدولة فى آخر خلافة صاحب جيش العسرة ، وقد كانت متماسكة البنيان قوية متفانية فى الإخلاص له متغالية فى حبه فى النصف الأول من خلافته ، فأحلته فى سويداء قلوبها وأسكنته حنايا أضلاعها : حقاً يعجب الإنسان كيف أن أولئك الأمجاد الذين رفعوا لواء الإسلام وأصبحوا بنعمته إخواناً عجزوا عن إطفاء فتنة كادت تدك معالم الدين وتطوّح بمجد المسلمين وتصوح زهرة اتحادهم المتين ، وهم أولئك الذين فتحوا البلدان ونشروا مجد الإسلام فى كثير من الأقطار، فخرجوا من جزيرتهم غازين وفى سبيل الله متحدين ، فأذابوا كل قوة وذللوا كل عقبة حتى أخضعوا أصحاب التيجان وأعزوا دين الله وشع ضوؤهم فى كثير من بقاع الأرض، فأحلوا الضياء محل الظلام ، ومكنوا دين الله بعد عبادة الأصنام .

ولكن هذا العجب يبطل إذا علمت أن القوم يحترمون الدين ويجلون أحكامه وهو دين حرية ومساواة . دين جعل عَلِيًّا رضى الله عنه يغضب لتكنيته حين وقف مع رجل من آحاد اليهود للمحاكمة ، وجعل عمر مع شدته بعد أن راجعته امرأة فى تحديد المهر يقول : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » . هذه الحرية التى جاء بها الدين جعلت علية القوم

يتغاضون عن عبد الله بن سبأ وقد كان يهودياً وأسلم. فأخذ يطوف بالحجاز والشام ومصر ينفر الناس من سيدنا عثمان ذى النورين، فتوثبت النفوس للفتنة بسبب تلك الحرية التى قدسوها واحترموها أشد الاحترام. ولكن الولاة لم يقصروا فى وصف دواء لذلك الداء، فقد قال ابن سعد أمير مصر لذلك الخليفة الطيب القلب: «أشغلهم بالجهاد» وقال ابن عامر أمير البصرة: «أصلحهم بالمال» وقال عمرو بن العاص، «اعتزم أن تعتدل: فإن أبيت فاعتزم أن تعتزل، فإن أبيت فاعتزم عزماً وامش قدماً».

ولكن إذا حم القضاء على امرىء فليس له برٌّ يقيـــه ولا بحر

وكيف يلام المهاجرون والأنصار وقد أخرجوا آخر سهم فى كنانتهم فطلبوا إلى خليفتهم الذى يجلونه لمآثره السابقة فى الإسلام وحيائه الذى يضرب به الأمثال — طلبوا إليه ليتخلى عن الخلافة. وما كان أطوع هذا الخليفة الطيب القلب إلى إجابة ما طلبوا وما رجوا! لولا أن هناك فئة لا تجد آمالها فى تخليه فاستمرأت طيبة قلبه وكبر سنه وحدبه عليها فأغرته بالتمسك بها، فلم يستمع لنصح أولئك الناصحين الراجين، وما طلبوا إلا مجد الدولة وإخماد تلك الفتنة فضُرِب عمار بن ياسر حامل رسالتهم ورجائهم من خليفتهم السهل العريكة اللين الطباع. ولولا مروان بن الحكم كاتبه ومستشاره لصلحت الحال والتأم الجرح قبل الاتساع.

وأخيراً لقد قام كبار الصحابة بما لم يبق معه طلب لمستزيد، فشافهوه فى وجوب التخلى عن الخلافة وناقشوه وجادلوه حينما علموا بالجواب

الذى كتب إلى والى مصر « عبد الله بن أبى سرح » فى شأن تعذيب وفد مصر ، ولكن ذوى قرابته يريدون لهم مكانة كمكانتهم الأولى وزعامة كزعامتهم السابقة ، فحرضوه على التمسك بالخلافة حتى قال : « لا أخلع قميصاً ألبسنيه الله » وهو ذلك الخليفة الورع الزاهد صاحب اليد الطولى فى الإسلام .

جهد على خاصة :

أما جهد على فإنه يتبين مما يلى : لما وجد أهل المدينة فى خطة عثمان ما لا يحسن السكوت عليه اجتمعوا وحكَّموا على بن أبى طالب فدخل على عثمان فقال له :

الناس ورائى وقد كلمونى فيك . والله ما أدرى ما أقول وما أعرف شيئاً تجهله ، ولا أدلك على أمر لا تعرفه ، إنك لتعلم ما نعلم . ما سبقناك إلى شىء فنخبرَك عنه ولا خلونا بشىء فنبلِّغَكه ، وما خُصصنا بأمر دونك ، وقد رأيتَ وسمعت ، وصحبتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ونِلت صهرَه ، وما ابن أبى قحافة بأولى بعمل الحق منك ، ولا ابن الخطاب بأولى بشىء من الخير منك ، وإنك أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رحما ، ولقد نلت من صهره ما لم ينالا ولا سبقاك إلى شىء . فاللهَ اللهَ فى نفسك فإنك والله ما تُبَصَّرُ من عَمًى ولا تُعَلَّمُ من جهل ، وإن الطريق لواضح بين ، وإن أعلام الدين لقائمة . تَعَلَّمْ يا عثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هُدِى وهَدَى ، فأقام سنة

معلومة وأمات بدعة متروكة . فوالله إن كلاً لبين وإن السنن لقائمة لها أعلام ، وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضَلَّ وضُلَّ به فأمات سنة معلومة وأحيا بدعة متروكة . وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر فيلقى فى جهنم فيدور فيها كما تدور الرحى » إلخ[1] » .

فقال عثمان رضى الله عنه :

قد والله علمت لتقولَن الذى قلت . أما والله لو كنتَ مكانى ما عنّفتك ولا أسلمتك ولا عبتُ عليك ، ولا جئتُ منكراً أن وصلتُ رحما وسددت خلة وآويت ضائعاً ووليت شبيهاً بمن كان عمر يُوَلى . أنْشُدك الله يا على ! هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك ؟ قال : نعم . قال : فتعلم أن عمر ولاه ؟ قال نعم . قال : فلم تلومنى أن وليت ابن عامر فى رحمه وقرابته ؟ قال على : سأخبرك . إن عمر بن الخطاب كان كلُّ من ولى فإنما يطأ على صماخه إن بلغه عنه حَرْف جلبه ثم بلغ به أقصى الغاية وأنت لا تفعل ، ضعفت ورفَقت على أقربائك . قال عثمان : هم أقرباؤك أيضاً . قال على : لعمرى إن رحمهم منى لقريبة ، ولكن الفضل فى غيرهم . قال عثمان : هل تعلم أن عمر ولَّى معاوية خلافته كلها ؟ . فقد وليته ، فقال على : أنْشُدك الله هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من « يَرْفَأ » غلام عمر منه ؟ قال : نعم . قال على : فإن معاوية يقتطع الأمور دونك وأنت لا تعلمها فيقول للناس : هذا أمر عثمان فيبلغك ولا تغير على معاوية .

---

(١) تاريخ ابن جرير — ص ٩٧ ج ٥

ثم خرج علىٌّ من عنده ، غير أن عثمان رضى الله عنه أصَرَّ على خطته بتأثير من حوله من الأمويين ولم يقدر العاقبة حق قدرها . واستقر عبد الله ابن سبأ فى مصر كما تقدم بعد أن جاب العراق والشام ينفث سمومه بين من أعماهم الحسد وأضلهم الهوى ولم يتمكن الإيمان من قلوبهم ، ولم يأل جهداً فى إثارة الفتنة حتى استفحل أمره ، فحرض الناس على الثورة والانتقاض على الخليفة ، وكاتب من فى مصر من أتباعه من أفسد بدعوته فى الأمصار الأخرى ، فتواعدوا أن يخرجوا جميعاً فى شوال مظهرين الرغبة فى الحج ، وذهبوا فنزلوا قريباً من المدينة واختلفت أهواؤهم فيمن يكون الخليفة بعد عثمان : فمال الكوفيون إلى الزبير ، والبصريون إلى طلحة ، والمصريون إلى على ، وذهب من كل جماعة وفدٌ إلى من مالوا إليه . فلما دخل أهل مصر على علىّ وسلموا وعرضوا عليه أمرهم صاح بهم وطردهم وقال لهم : لقد علم الصالحون أنكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم . وكذلك قال طلحة والزبير فانصرف القوم كما تقدم . ولما علم عثمان رضى الله عنه بأمرهم جاء عليًّا فى بيته فقال له :

« يا بن عم . . إنه ليس لى مَتْرك وإن قرابتى قريبة ولى حقٌّ عظيم عليك ، وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم وهم مصبحى ، وأنا أعلم أن لك عند الناس قدراً وأنهم يسمعون منك ، فأنا أحب أن تركب إليهم فتردهم عنى فإنى لا أحب أن يدخلوا علىّ فإن ذلك جراءة منهم علىّ وليسمع بذلك غيرهم . فقال علىّ : علام أردهم ؟ قال : على أن أصير إلى ما أشرت

به عَلَىَّ ورأيته لى . فقال على : إنى كنت كلمتك مرة بعد مرة فكلّ ذلك تخرج فَتَكَلَّمُ وتقول ثم تنقض ما تقول ؛ وذلك كله فعل مروان ابن الحكم وسعيد بن العاص وابن عامر ومعاوية ، أطعتهم وعصيتنى .

قال عثمان : فإنى أعصيهم وأُطيعك، فأمر الناس فركب معه المهاجرون والأنصار إلى أهل مصر وكلمهم علىّ ومحمد بن مسلمة فانصرفوا مظهرين الرجوع إلى ديارهم وعاد علىّ بعد انصرافهم إلى عثمان فقال له :

تكلم كلاما يسمعه الناس منك ويشهدون عليه ويشهد الله على ما فى قلبك من النزوع والإنابة ؛ فإن البلاد قد تمخضت عليك فلا آمن ركباً آخرين يقدمون من الكوفة فتقول : يا على اركب إليهم ولا أقدر أن أركب إليهم ولا أسمع عذراً ، ويقدم ركب آخرون من البصرة فتقول : يا على اركب إليهم فإن لم أفعل رأيتنى قد قطعت رحمك واستخففت بحقك ، فخرج عثمان فخطب خطبة نزع فيها وأعطى الناس من نفسه التوبة . قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد ، أيها الناس ؛ فوالله ما عاب من عاب منكم شيئاً أجهله ، وما جنيت شيئاً إلا وأنا أعرفه ، ولكنى مَنَّتنى نفسى ، وكَذَبتنى ، وضل عنى رشدى . ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من زل فليتب ، ومن أخطأ فليتب ، ولا يتماد فى الهلكة ، إن من تمادى فى الجَوْر كان أبعد من الطريق » فأنا أول من اتعظ . أَستغفر الله مما فعلت وأَتوب إليه فمثلى نزع وتاب . فإذا نزلت فليأتنى أَشرافكم فَلْيُرُونى رأيهم ، فوالله لئن ردَّنى الحق عبداً لَأسْتَنَّنَّ بسنة العبد ، ولأذلنَّ

ذل العبد ، ولأكون كالمرقوق ، إن مُلك صبر ، وإن عُتق شكر ، وما عَنِ الله مذهب إلا إليه ، فلا يعجزن عنكم خياركم أن يدنوا إلى ، لئن أبت يمينى لتَتُبا بِعَنِّى شمالى .

فرق الناس لعثمان وبكى من بكى وكاد هذا الكلام يؤتى ثماره، لولا أنه لما بلغ مروان بن الحكم ولم يكن حاضره لم يرقه ، وأنكره على عثمان لأنه وجد فيه ضعفاً واستكانة لا تلائم فى نظره منصب الخلافة فى هذا المقام ، واستأذن عثمان فى أن يحدث الناس فأذن له فخرج مروان فقال : « ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب ؟ شاهت الوجوه . . . جئتم تريدون أن تنزعوا مُلْكنا من أيدينا ، اخرجوا عنا . . ارجعوا إلى منازلكم ، فإنا والله ما نحن بمغلوبين على ما فى أيدينا » فتفرق الناس مغضَبين ، وذهب جماعة منهم إلى علىّ فأخبروه الخبر فجاء مغضَباً حتى دخل على عثمان فقال :

« أما رضيت من مروان ، ولا رضى منك إلا بتَحَرُّفِك عن دينك وعن عقلك ، مثل جمل الظعينة يقاد حيث يُسار به ، والله ما مروان بذى رأى فى دينه ولا نفسه ، وايم الله إنى لأراه سيوردك ثم لا يصدرك ، وما أنا بعائد بعد مقامى هذا لمعاتبتك ، أذهبت شرفك وغُلِبت على أمرك »
ثم خرج ودخلت على عثمان زوجه نائلة فأشارت عليه بأن يسترضى علياً ويستنصحه ولا يعتمد على مروان فى رأى فليس له عند الناس قدر ولا محبة، فأرسل إلى على فأبى أن يأتى وقال للرسول : قد أعلمته أنى لست بعائد .
ورُوِى أن عثمان ذهب إلى على بليل وحاول أن يسترضيه فامتنع علىّ وذكر له

رجوعه عما استرضى به الناس إلى رأى مروان بن الحكم ، وشتم مروان الناس ببابه

*
* *

تألب أكثر أهل المدينة على عثمان وكتبوا إليه يدعونه إلى التوبة ، ويطالبونه بما لهم عنده من حقوق ، ويتهددونه بالقتل ، فكتب إلى الأقاليم يستنجد بالمسلمين ، وكان فيما كتب لمعاوية

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فإن أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة فابعث إلى مَنْ قِبَلِك من مقاتِلة أهل الشام على كل صَعْب وذلول » فلما جاء معاويةَ الكتابُ تربص به ، وكره إظهار مخالفة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما أبطأ على عثمان كتب إلى أهل الشام يستنفرهم ، ويعظم حقه عليهم ، وصعِد عثمان المنبر يوم الجمعة فحمد الله وأثنى عليه ، فقال رجل : أقم كتاب الله ، فقال عثمان : اجلس . فثار الناس وتحاصبوا حتى سقط عثمان عن المنبر ، وحُمل إلى داره مغشياً عليه ، فجاءه علىّ رضى الله عنه يعوده وحوله بنو أمية فقال له : مالك يا أمير المؤمنين ؟ فقال بنو أمية بمنطق واحد : يا على . أهلكتنا وصنعت هذا الصنيع بأمير المؤمنين ، أما والله لئن بلغت الذى تريد لتُمرِّنّ عليك الدنيا . فقام على مغضبا

*
* *

لم يلبث ثوار الأقاليم أن عادوا بعد تفرقهم ودخلوا المدينة على حين غفلة من أهلها ، فكبروا فى نواحيها وأحاطوا بدار عثمان ونادوا : مَن

كَفَّ يده فهو آمن ، فلزم الناس بيوتهم . ثم جمع عثمان نصحاءه وأهل بيته واستشارهم ، فأشاروا عليه بأن يطلب إلى علىٍّ ردهم ويعطيهم ما يرضيهم ، فدعا عليًّا فجاءه فقال له :

« يا أبا الحسن ، إنه قد كان من الناس ما قد رأيت ، وكان منى ما قد علمت ، ولست آمنهم على قتلى ، فارددهم عنى فإن لهم الله عز وجل أن أعتبهم من كل ما يكرهون ، وأن أعطيهم الحق من نفسى ومن غيرى وإن كان فى ذلك سفك دمى » .

فقال له على : النـاس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك ، وإنى لأرى قوماً لا يرضون إلا بالرضا وقد كنت أعطيتهم فى قَدْمَتهم الأولى عهداً من الله لترجعَنَّ عن جميع ما نقموا ، فرددتهم عنك ، ثم لم تف لهم بشىء من ذلك ، فلا تغرنى هذه المرة من شىء فإنى معطيهم الحق عليك . قال نعم . فأعطهم فوالله لأَفِيَنَّ لهم ، فخرج على إلى الناس فقال : أيها الناس إنـكم إنما طلبتم الحق فقد أعطيتموه . إن عثمان قد زعم أنه منصفكم من نفسه ومن غيره ، وراجع عن جميع ما تكرهون ، فاقبلوا منه وَوَكِّدوا عليه قال الناس : قد قبلنا ، فاستوثِق منه لنا فإنا والله لا نرضى بقول دون فعل . فقال لهم على : ذلك لـكم . ودخل على عثمان فقال عثمان :

اضرب بينى وبينهم أَجَلا يكون لى فيه مهلة ، فإنى لا أقدر على رد ما كرهوا فى يوم واحد ، فقال على : ما حضر بالمدينة فلا أجل فيه

وما غاب فأجله وصول أمرك ، قال عثمان : نعم ، ولكن أجلنى فيما بالمدينة ثلاثة أيام قال على : نعم . وخرج إلى الناس فأخبرهم بذلك ، وكتب بينهم وبين عثمان كتابا بذلك على أن يرد كل مظلمة ، ويعزل كل عامل كرهوه ، وكف المسلمون عنه ؛ ولكن مرت الأيام الثلاثة ولم يفعل ما يرضيهم ، فاشتد الحصار بعثمان رضى الله عنه واستمر مدة اختلف الرواة فى تقديرها ، وقد تلمس الثوار فيها العلل لمناوأة عثمان ، وحالوا بينه وبين الناس ومنعوه كل شىء حتى الماء ، فأشرف على جيرانه من آل حزم ، فبعث غلاما إلى على وطلحة والزبير وأزواج النبى صلى الله عليه وسلم يخبرهم بمنع الماء ، ويسألهم أن يرسلوا إليه ماء إن استطاعوا ، فكان أوَّلَهم إنجاداً له علىُّ بن أبى طالب وأمُّ حبيبة . وقد جاء على فى الغَلَس فحدث الناس قال :

« يأيها الناس إن الذى تصنعون لا يشبه أمْرَ المؤمنين ولا أمر الكافرين ، لا تقطعوا عن هذا الرجل الماء ، فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقى ، وما تعرض لكم هذا الرجل ، فَبِمَ تستحلُّون حَصْره وقَتْله » فأبى الثوار الإصغاء إلى كلام على فرجع مغضَباً إلى آخر ما تقدمت الإشارة إليه .

ورُوِى أنه لما تحرج الموقف توجه سعد بن أبى وقاص إلى على رضى الله عنه وهو بين القبر والمنبر فقال له :

« يا أبا الحسن قم فداك أبى وأمى ، جئت والله بِخَير ما جاء به أحد

(٦)

قط إلى أحد : تصل رحم ابن عمك ، وتأخذ بالفضل عليه ، وتَحْقِن دمه ويرجع الأمر على ما تحب ، قد أعطى خليفتك من نفسه الرضا

فقال علي : تقبل الله منك يا أبا إسحاق . والله ما زلت أذب عنه حتى إني لأستحي . ولكن مروان ومعاوية وعبد الله بن عامر وسعيد ابن العاص هم صنعوا به ما ترى ، فإذا نَصَحْتُه وأمرته أن يُنَحِّيَهُم استغشني حتى جاء ما ترى

***

مما تقدم يتبين أن علياً رضى الله عنه لم يكن راضياً عن خطة عثمان ، بل كان يأخذ عليه بعض ما يأخذ الناس ، وقد صرح له بأنه يثق من آل أمية بمن لا يستحق أن يوثق به كمروان وغيره ، وأنه يعامل الولاة باللين حتى إنهم ليبرمون الأمور دونه وينسبونها إليه ، ثم يبلغه ذلك فلا يغير ما أبرموا

ولا نستطيع هنا أن نلوم علياً لغضبه وسخطه على تلك النعرة التى ظهر بها بنو أمية حتى قبضوا على ناصية الأمور . ومما لا شك فيه أن علياً رضى الله عنه كان يرى أنه أحق بالخلافة من غيره لصلته بالرسول صلى الله عليه وسلم وسابقته وبلائه . وهذه الحوادث وما سبقها تدلنا على أن هذا الرأى لم يمنعه من الدخول فيما دخل فيه المسلمون ، والإخلاص لما أخلصوا له، ومن معاونة الخلفاء جميعاً فيما اضطلعوا به من أعباء الخلافة . ثم لم يكن فى زمن عثمان على عدم رضاه عن كل أعماله أقل إخلاصاً ومعاونة منه فى زمن الخليفتين . فلم يُقَصِّرْ فى نصحه ومصارحته بما يرى .

ولم يدخر وسعاً فى محاولة إصلاح الحال ، ودَرْء ما يخشى وقوعَه من نكبات تحل بالمسلمين ، حتى خذله عثمان فيما توسط فيه من صلح بينه وبين الناس ، فاستحيا عليٌّ أن يتعرض بعدُ لما بينه وبينهم ، وبعث بابنيه ومواليه للذبِّ عنه ، على حَرَج الموقف وخطورته ، وتعرض ابنيه فيه للهلاك .

وقد يقال : ألم يكن فى وسع على أن يفعل فوق ما فعل فيحول دون وقوع الكارثة ؟ والجواب : إنه كغيره من الصحابة ما كان يظن أن تبلغ الجرأة بالناس إلى الإقدام على قتل خليفتهم ، كما صرح بذلك سعد ابن أبى وقاص فى حديثه مع مروان يوم أن ظهرت نيات الثائرين ، وتفاقم الشر فى نفوسهم من أن أكبر ما كان ينتظر أن يرغموه بتهديدهم إياه على النزول عن الخلافة لغيره . على أن علياً ما كان يستطيع أن يفعل فوق ما فعل إلا إذا جرد نفسه من كل الملابسات والحقائق التى تحيط به ، أو جعل نفسه أداة لبنى أمية يوجهونها حيث أرادوا وينفذون بها من الأغراض ما شاءوا ، وهذا ما لا يستطيعه رجل كعلى بن أبى طالب ، بل إن مثله ليلتمس له العذر إذا ثار غضبا لما يرى من تحول الحال من عدل مطلق فى عهد الخليفتين ، وقوة شكيمة فى الخلفاء تقوِّم المعوج ، وتقف كلا عند حده ، إلى ولاية يستهان فيها بأمر الخليفة وتكون الحظوة فيها والتقدم لبنى أمية ، وليسوا من السابقين ذوى البلاء ، وهو مقياس الفضل فى ذلك الزمان .

على أنا نشك فى نجاح عليٍّ لو تقدم فى موقفه خطوة ، فقد كان

الناس مدفوعين إلى الثورة بعوامل أخرى من تدبير ابن سبأ وغيره. وقد رأينا كيف ردهم على، فما لبثوا أن عادوا ومعهم ذلك الكتاب الذى لم يلهم الله تعالى أحداً أن يتبين حقيقة أمره، ويصل بالدليل إلى تعيين كاتبه، وإن كانت الظواهر ترجح أنه مروان فتلك نزعته، وإنما يصل إلى خاتم عثمان وغلامه وجمله مثلُه.

ومن الإنصاف أن نقرر أنه ما كان ينبغى لعثمان أن يصدف عن رأى على ويعد الناس على لسانه ثم لا يحقق ذلك متأثراً بمن حوله من الأمويين وبخاصة مروان. وماذا يفعل على وقد طرح رأيه ونبذ نصحه وقد حاول أن يزيل سخط الثائرين، ويُبَصِّر عثمان بحرج الموقف، ووخامة العقبى، ولكن لا رأى لمن لا يطاع.

***

لقد كان عثمان رضى الله عنه مخلصاً كل الاخلاص لدينه وأمته راغباً أشد الرغبة فى حقن دماء المسلمين وإن ذهب فداء هذه الرغبة. ولكن هذا الإخلاص وتلك الرغبة لم يكونا كافيين لبلوغ الغاية فى مثل تلك الحال، بل كان من الواجب أن يدع هذا التردد الذى رأيناه ويعالج الموقف بما يستحق من عناية وحكمة، فيقطع أسباب الشكوى ويذر كل ما يمكن أن يؤوله الناس تأويلاً سيئاً، وما كان ينبغى — مثلاً — أن يمد الناس بسمع من على — بأن يجيب مطالبهم بعد ثلاث، ثم يتنحى عن ذلك بتأثير مروان، فيُغْضب علياً ويَصْرفه عنه. ولعل له من كبر سنه وضعفه وإحاطة الأمويين به ما يعذر به.

التبعة إذاً واقعة على من أحاط به من الأمويين . فهم الذين جروه إلى هذا الموقف جراً ، ولم يخلصوا لدينهم وخليفتهم ، فاستغلوا ضعفه وكبر سنه أسوأ استغلال ، وحالوا بينه و بين الانتفاع بعلى بسوء مشورتهم. وقد رأينا كيف كانوا يفسدون كل ما يحاول علىّ إصلاحه حِرْصاً على أن يكون الأمر فى أيديهم ، فقد أرضى عثمان الناس باشارة على . فأنكر عليه مروان ، أبى إلا أن يخرج إليهم فينقض ما قال عثمان ، و يؤذى الناس ، و يوغر صدورهم بحديث الملك الذى لهم .

ولو أن مَنْ حول عثمان أقنعوه عند تفاقم الأمر بالرجوع إلى أصحاب الشورى واستشارتهم والعمل برأيهم ولو بالتنازل عن الخلافة — لكان له وللمسلمين فى ذلك مخرج مما ألم بهم ، ولكنهم كانوا كلما أعطى عثمان رضى الله عنه من نفسه الرضا صدفوه عن قصده ووجهوه إلى مايريدون .

***

وفى الحق أن الخلاف بين على ومعاوية بدأ حين ظهرت طلائع الفتنة بين المسلمين أيام عثمان رضى الله عنه ، وشكا الناس إليه عماله فاستقدمهم إليه ليتحدث إليهم و يستشيرهم فى الأمر ، ثم لم يجنح بعد هذه الاستشارة إلا إلى اللين ، وعدم الأخذ بالشدة ، شفقة ورحمة ، وخوفاً من سوء العاقبة ، وكأن الناس رأوا فيما وطد العزم عليه فتح باب الشر ، فاستشرفوا آخرته وأحسوا دنو نهايته ، فتكلموا فيمن يخلفه ، وتوقع بعضهم أن يكون الأمر من بعده لعلى أو الزبير أو طلحة ، كما توسم آخرون أن يكون لمعاوية .

روى ابن جرير (ص ١٠٠ جزء ٥) عن رجل من بنى أسد قال : « ما زال معاوية يطمع فيها بعد مقدمه على عثمان حين جمعهم فاجتمعوا إليه بالموسم ، ثم ارتحل فحدا به الراجز :

قد علمت ضَوامِرِ المطى وضُمَّرات عـوج القِسِىّ
أن الأمير بعـــده على وفى الزبير خلف رضىّ
وطلحة الحامى لها ولىّ

قال كعب : كذبت ، صاحب الشهباء بعده ، يعنى معاوية . فأخبر معاوية ، فسأله عن الذى بلغه . قال : نعم ، أنت الأمير بعده ، ولكنها والله لا تصل إليك حتى تكذب بحديثى هذا ، فوقعت فى نفس معاوية » اهـ .

فلما عادوا من الموسم إلى المدينة ورَدَّ عثمان الأمراء إلى أعمالهم ، ودع معاوية عثمان ليرجع إلى الشام ، وقال فى حضرة على رضى الله عنه كلاماً يشعر باهتمامه بالأمر وعنايته بالوصية بعثمان ، فقال له على : ومالك وذلك ، وما أدراك لا أم لك . قال معاوية : دع أمى مكانها . ليست بشر أمهاتكم (ابن جرير) .

قتل عثمان ، وانتهى الأمر من بعده إلى على رضى الله عنهما . فبعث بعماله إلى الأمصار ، وما لعلى أن يتريث فى هذا ، والثورة فى إبانها . وأول ما أخذ على عثمان مساوى عماله . فكان مبعوث الشام سهل بن حنيف ، فسار إليها حتى إذا بلغ تبوكَ لقيته خيل الشام فردته ، وكان ذلك إيذانا بامتناع معاوية من بيعة على . فبعث إليه كتاباً مع سبرة الجهنى

فأهمله معاوية ثلاثة أشهر ثم سرَّحه وأرسل إلى على رسولاً بطومار مختوم فلما فتحه علىّ لم يجد فيه كتابة فسأل الرسول : ما وراءك ؟ فقال : إنى تركت قوماً لا يرضون إلا بالقوَدِ . قال : ممن ؟ . قال : من خيط نفسك، وتركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق . (وكان النعمان بن بشير قد قدم على معاوية ومعه قميص عثمان الذى قتل فيه مخضباً بدمه و به أصابع نائلة التى قطعت حينما كانت تدافع عنه ، فناط معاوية الأصابع بالقميص و وضعه على المنبر ليراه الناس ، وكتب بالخبر إلى الأجناد ، فثاب إليه الناس يبكون والقميص يوضع أمامهم كل يوم على المنبر) . فقال علىّ : منى يطلبون دم عثمان؟ ألست موتوراً لترة عثمان؟ اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان[1] .

***

ولو أن علياً رضى الله عنه كان طامعاً فى الخلافة كما اتهمه الأمويون لما كان موقفه منها أنه حين أقبل الناس إليه يهرعون بعد مقتل عثمان رضى الله عنه قائلين له : « لا نجد اليوم أحداً أحقّ بهذا الأمر منك » . قال : لا تفعلوا ؛ فانى أكون لكم وزيراً خير من أن أكون أميراً . فقالوا : لا والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك . قال : دعونى والتمسوا غيرى فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول . فناشدوه الله والدين ، فقال : اعلموا أنى إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، وإن تركتمونى فإنما أنا كأحدكم، إلا أنى أسمعكم وأطوعكم

(١) ١٦٣ ج ٥ — الطبرى

لمن وليتموه أمركم . فأبوا إلا البيعة . فقبل بعد لأى على أن تكون البيعة في المسجد ، واتَّعَدُوا المسجد غدا ، وقد كان ، وتمت له البيعة .

هذه هى الوقائع التى نستطيع أن نستنبط منها ما يتعلق بموقف على من عثمان فى هذه الفترة الصاخبة ، ومنها يتبين ما يأتى :

(١) لم يكن عثمان رضى الله عنه فى حزم الخليفتين قبله ، ولم يكن فى شدة عمر على عماله ، ودوام مراقبته لهم ، بل كان هيناً ليناً مسالماً . ونشأ عن هذا اللين أن استهان بعض أمرائه بأوامره بل أهان رسله . فقد ذكر ابن قتيبة فى الإمامة والسياسة : أن أهل مصر جاءوا يشكون ابن أبى سرح عاملهم ، فكتب إليه عثمان كتاباً يتهدده فيه ، فأبى ابن أبى سرح أن يقبل نَهى عثمان عما نهاه عنه ، وضرب من أتاه من قِبَل عثمان من أهل مصر حتى قتله . وانظر ماذا يكون أثر هذا فى الناس ؟ هل ينتظرون بعد ذلك إقامة للعدل ومنعاً للفساد ويحترمون منصب الخلافة ؟

وقد ابتعد أبو بكر وعمر رضى الله عنهما عن شبهة نفع الأقارب ، فلما عهد أبو بكر إلى عمر . أطل على الناس فى مرضه فقال : « أترضَوْن من استخلفت عليكم ؟ فانى ما استخلفت عليكم ذا قرابة »

ولما جعل عمر الخلافة فى الستة قال : يشهدكم عبد الله بن عمر — كهيئة التعزية له — وليس له من الأمر شىء ، أما عثمان رضى الله عنه فقد عرف عنه حبه لأقاربه حتى وثق بمن لا يستحق أن يوثق به منهم ، وأكثر من استخدامهم فى شؤون الدولة . وقد يرجع هذا — فوق غريزته وطبعه

إلى كبر سنه ، وثقل أعباء الخلافة عليه . وأول من تتوجه نفس المرء إلى الاستعانة بهم عند الحاجة ، أقرب الناس اليه .

(٢) التف الأمويون حول عثمان بحكم صلة القرابة ، واستغلوا ضعفه ولينه ومنصبه فى جر المغانم المادية والمعنوية ، وفى القبض على ناصية الأمور . ولعلهم كانوا يرومون من وراء ذلك أن تجعل الخلافة من بعده فى أحدهم حتى لا تخرج من بينهم ، بل ذلك ما يفهم صريحاً من قول مروان للناس على باب عثمان : « جئتم تريدون أن تنزعوا مُلكنا من أيدينا ؟ اخرجوا عنا » . وهو ما حملهم ان يُلْصقوا تهمة قتل عثمان بعلى وطلحة والزبير من أصحاب الشورى ، ثم هو ماحققه لهم معاوية بعد ، وأصر على القتال حتى حصل عليه ، ثم انصرف عن المطالبة بدم عثمان كما كان يزعم .

تضحيات عثمان فى سبيل الاسلام

قام الإسلام على التضحية والفداء، وثبتت أصوله وقامتْ أغصانه فارعة على بذل النفس والنفيس فى إعلاء كلمة الله، فتَحَمل المسلمون الآلام وصدقت عزائمهم فى تجشم الأخطار، واستعذب الرسول وأصحابه صنوف العذاب فى أنفسهم وحرياتهم من أول الأمر، فما الوطن على محبته، وما المال على نفاسته، وما الأهل على التعلق بهم، بأعز على المسلم من أن يبذل نفسه فى مطالب الإسلام.

وكانت المتاعب التى استقبل بها الرسول الكريم فى مكة من قريش ابتلاء من الله له ولمن آمن معه حتى تستعد نفوس المسلمين لمواجهة الأخطار وملاقاة الأهوال، وكان من عجيب حكمة الله أن تحس نفوس المسلمين امتعاضاً إذا لم تجد هولا تصارعه وأن يكون الهلاك أحب إليها من البقاء إذ هو شهادة عند الله تنتظر النفوس أن تسرع إليها، وما عند الله خير وأبقى.

علم أصحاب رسول الله أن كل واحد منهم جنـدى من جنود الإسلام، فباعوا أنفسهم بيع السماح فتضافرت القوى على نصرة الإسلام بالأنفس والأموال.

وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه من الذين قال الله فيهم :

« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » .

ولا عجب فهو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف القرشى الأموى يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عبد مناف فهو من أشرف قبائل العرب ، وأمه أروى بنت كريز من زوجته البيضاء بنت عبـــد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

دعاه أبو بكر رضى الله عنه إلى الإسلام أول ما أسلم فسارع إلى الهداية غير راغب ولا راهب ، وهو الغنى بماله ، العزيز فى قومه ، وأشرق فى قلبه نور الإيمان فأضاء نفساً مخلصة صافية ونقاها من دنس الشرك وظلام الكفر ، فما عرف عنه فى الجاهلية عداء للدعوة المحمدية ولا تآمر لصد تيارها ولا سخط على دعاتها وحماتها ، ثم لم يترجح فى إسلامه ، أو يتردد فى إيمانه ، وما هو إلا أن دعاه صديقه فاستجاب الدعوة .

وعثمان أحد العشرة الذين بشرهم النبى صلى الله عليه وسلم بالجنة . روى أبو موسى الأشعرى قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حائط من حيطان المدينة فجاء رجل فاستفتح فقال النبى صلى الله عليه وسلم : افتح له و بشره بالجنة ، ففتحت له فإذا هو أبو بكر فبشرته بما قال النبى صلى الله عليه وسلم فحمد الله ، ثم جاء رجل فاستفتح فقال النبى صلى الله عليه وسلم : افتح له و بشره بالجنة ، ففتحت له فإذا هو عمر فأخبرته بما قال النبى صلى الله عليه وسلم فحمد الله ، ثم استفتح رجل فقال : افتح

له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه، فإذا عثمان فأخبرته بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله ثم قال : الله المستعان .

كان عثمان رضى الله عنه من أخلص المؤمنين إيمانا وأصفاهم عقيدة وأعمقهم يقينا وأتقاهم قلباً وأشدهم رأفة وألينهم جانباً وأكثرهم على المسلمين براً وشفقة، ولم تبد فرصة يكون للبر والإحسان فيها موضع إلا كان أسبق المسلمين إليها، ولم تنزل بالمسلمين شدة وعسر إلا كان عثمان أول العاملين على تخفيف ويلات الشدة وإزالة العسر والتفريج عن الكرب فى أظهر صورة، وأجمل مواساة، وأجلى إخلاص، لا يبتغى بذلك من الناس حمداً ولا يترقب منهم خيراً، ولكنه يطلب ما عند الله ويرجو المثوبة منه وحده .

ولذلك كانت تضحياته بالغة مبلغاً كبيراً فى عموم جدواها وبالغ أثرها وبعد غايتها وطيب ثمراتها . تكشف للرسول الكريم أن عثمان يحمل قلباً طاهراً ونفساً سمحة وثابة للسبق فى خدمة الإسلام، وأعجب الرسول بوقاره الباهر وإخلاصه الفياض، وكان الله قد مَنّ على عثمان بالسعة فى الرزق والثروة الطائلة فجعلها معيناً يبذل منه ما شاء الإسلام .

إنه وقف ماله على ترفيه عيش المسلمين فى السلم، وجعله عدة لتجهيز الجيوش والمؤن فى الحرب، فلا عجب أن يكون إسلامه نعمة أفاضها الله على المسلمين، وأن يخصه رسول الله بزواج كريمته السيدة رقية حتى إذا توفاها الله زوجه بكريمته الأخرى السيدة أم كلثوم وحسبنا بهذا النسب تكريماً وتقديراً من الرسول لعثمان .

ولما اشتد إيذاء قريش للنبي وأصحابه فى مكة وضاق بهم العيش انقسموا فريقين فريق يتحمل الهوان ابتغاء رضوان الله ، وفريق اختار له النبي أن يهاجر إلى الحبشة ، وقد علموا من النجاشى عطفاً عليهم ، ومن ذلك ما أخرجه ابن سعد عن محمد بن الحارث التيمى قال :

لما أسلم عثمان بن عفان أخذه عمه الحكم بن العاص فأوثقه رباطاً ، وقال : ترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث ! والله لا أدعك أبداً حتى تدع ما أنت عليه . فقال عثمان : والله لا أدعه أبداً ولا أفارقه ؛ فلما رأى الحكم صلابته فى دينه تركه .

ثم اشتد اضطهاد قريش له فكان من السابقين إلى فراق الوطن بالسيدة رقية ؛ فدعا لهما النبي بقوله : (صحبهما الله . إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط) يشير إلى قوله تعالى (فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى) فقد جعله رسول الله بمنازل الأنبياء الذين شقوا فى سبيل دينهم حتى اضطرهم خصومهم إلى ترك ديارهم وأوطانهم وأموالهم .

ثم عاد من الحبشة وهاجر من مكة إلى المدينة مع المهاجرين فكان فى حروب الرسول سيفاً من سيوف الإسلام .

وقد تبدو هذه الهجرة يسيرة الشأن قليلة الخطر . ولكن عثمان ، وهو الغنى بماله العزيز فى قبيلته وقومه الذى يستطيع أن يدرأ عن نفسه بذلك ما عساه يناله من الكفار ، وما يتوجه إليه من أذاهم الذى أصاب غيره — عثمان الذى يمكنه أن يقابل شرهم بشر مثله إن قصدوه بسوء ، وينال منهم أضعاف ما ينالون منه ، ترك وطنه وماله وما إلى ذلك

وهاجر مع القلة التى هاجرت أول مرة ليكون قدوة للمؤمنين الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ولا رد كيد أعدائهم ؛ إذ لا شك أن من يرى عثمان — وهو فى قومه من هو — يهاجر فراراً بدينه غير حافل بما يتركه ، ولا بمن خلفه من قوم أشداء ينصرونه إذا ابتغى منهم النصرة ، يهون عليه أن يحتذى حذوه ويرى فيه الأسوة ويجد منه الزميل والرفيق فى الغربة والمشجع على ترك الأهل والوطن وتحمل آلام الاغتراب والصبر على ما يصيبه فى ذلك من عنت وإرهاق . فليست هجرة عثمان بالتى تقاس بهجرة غيره لأن أكثر من هاجر إلى الحبشة كانوا من قلة الجاه وضعف الشأن ما لم يكن لهم به مندوحة عن الهجرة ، لأنها الوسيلة الفذة لنجاتهم ورد العدوان عنهم والفرار من إعنات الكفار لهم .

أما هو فليس شأنه شأنهم كما أسلفنا ، لهذا كانت هجرته مما قوى عزائم غيره على الاقتداء به وشجعهم على ألا يمكنوا المشركين منهم وأن ينجوا بدينهم وأنفسهم من كيد من لا يطيقون لهم دفعاً ، ونكال من لا قبل لهم بالوقوف فى وجههم ، إلى بلد يستطيعون فيه أن يحافظوا على عقيدتهم آمنين غير وجلين ولا خائفين . وفى وجود عثمان وأمثاله بينهم ما يهون عليهم مشاق الغربة ، ويخفف على نفوسهم ألم الوحشة لذا كان هجرة عثمان من أقوى الأسباب فى تمكين الإيمان من قلوب ضعاف المسلمين وتثبيت اليقين فى نفوسهم وتقوية العزيمة فى غيرهم ممن يخشى من الكفار الفتنة ويرهب من المشركين الضرر والمحنة .

ومن تضحيات عثمان أيضاً أنه اشترى بئر رومة بالمدينة وتصدق

بها على المسلمين ليستسقوا منها . وخبر ذلك أن هذه البئر كانت ليهودى وكان يبيع القربة منها بِمُدّ[١] ولم تكن عيون المدينة وآبارها فى عُذوبتها وغزارتها وموافقة مائها للمهاجرين . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لصاحبها : تبيعنيها بعين فى الجنة ؟ فقال : ليس لى ولا لعيالى غيرها . فقال النبى : من يشترى بئر رومة فيجعلها للمسلمين يضرب بدلوه فى دلائهم وله بها مشرب فى الجنة ؟

فأتى عثمان اليهودى فساومه بها فأبى أن يبيعها كلها فاشترى نصفها وجعله للمسلمين ثم اشترى النصف الآخر ، وقد بلغت جملة الثمن عشرين ألف درهم وصارت كلها للمسلمين . فأى مكرمة هذه التى قدمها عثمان لإخوانه المسلمين . وأى صنيعة جعلها عند ربه ، إذ أنقذهم من احتكار هذا اليهودى وتحكمه فيهم وتقديره الأجر الذى يرضاه لمن يريد الاستسقاء منها ؟ وفى أى شىء هذا الاحتكار ؟ إنه فى الماء الذى لا حياة إلا به والذى يبذل الناس فى سبيل الحصول عليه كل ما يملكون إنقاذاً لأرواحهم من جشع النهم وتحكم هذا المستبد . عشرون ألف درهم يخرج عنها عثمان لربه فى غير جلبة ولا ضوضاء ولا إعلان ولا إذاعة ؛ ابتغاء المثوبة من الله وإشفاقاً على المسلمين وإنقاذاً لهم من تحكم عدوهم واحتكاره ؟ إن هذا لهو السخاء والكرم والبر فى أجلى صوره والبذل لخير المسلمين فى أجمل معانيه وأكمل ألوانه ، إن ذلك عنوان الإيمان المكين واليقين الثابت والشفقة والرحمة والثقة فيما عند الله من

(١) مكيال معروف وهو يعادل رطلا وثلثا .

جزيل الثواب وواسع الفضل ورفيع الدرجات والتصديق الكامل لما يقوله الرسول ويعد به عن الله جل شأنه .

من شأن أمثال هذا البر أن يرفه عن المسلمين بعض معيشتهم ويخفف عنهم شيئاً من مشاق حياتهم ، وخاصة إذا علمنا أن أهل المدينة من الأنصار قد أحسوا بعض الشدة من نزول إخوانهم المهاجرين عليهم ومشاركتهم لهم فى أقواتهم ومرافقهم فإذا جاء مثل عثمان وهو من المهاجرين — واشترى تلك البئر وجعلها لجميع المسلمين وجدوا فى ذلك نوعا جميلا من المؤاساة ومساهمة فى تفريج الشدة ومشاركة فى أثقال الحياة الجديدة كما وجد المهاجرون فيه إعانة لهم وتطييباً لقلوبهم .

ومن تضحياته العظيمة الشأن العميقة الأثر تجهيزه جيش العسرة فى غزوة تبوك : ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم بلغه أن الروم جمعت الجموع تريد غزوه فى بلاده ، وكان ذلك فى زمن عسرة الناس وجدب البلاد وشدة الحر حين طابت الثمار والناس يحبون المكث فى ثمارهم وظلالهم . فأمر عليه السلام بالتجهز ، وكان قلما يخرج فى غزوة إلا ورَّى بغيرها ليُعَمِّى الأخبار على العدو ، إلا فى هذه الغزوَة فإنه أخبر بمقصده لبعد الشقة وكثرة العدو ، فيأخذ الناس أهبتهم لذلك ، وبعث إلى مكة وقبائل الأعراب يستنفرهم ، وحث الموسرين على تجهيز المعسرين فجهز عثمان ثلثمائة بعير بأقتابها وأحلاسها وَخمسين فرساً وأتى بألف دينار فى ثوبه فصبها فى حجر النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال صلى الله عليه وَسلم : ما على عثمان ما عمل بعد اليوم ، غفر الله لك يا عثمان ما قدمت

وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما هو كائن إلى يوم القيامة . اللهم ارض عن عثمان فإنى راض عنه .

وجاء النبىَّ سبعةٌ من الصحابة يطلبون إليه أن يحملهم فقال : لا أجد ما أحملكم عليه ، فتولَّوا وأعينهم تفيض من الدمع حَزَناً ألا يجدوا ما ينفقون . فجهز عثمان ثلاثة منهم . وهذا من غير شك بذل كبير ومعونة لها أثرها ، واستجابة لله ولرسوله ليس وراءها زيادة لمستزيد ، قويت بها شوكة المسلمين وعز جانبهم وعظم على أعدائهم شأنهم حتى أدخلوا الرعب فى قلوبهم وبثوا الذعر فى نفوسهم .

وهناك تضحية عظيمة لعثمان كان لها أثرها العظيم الشأن للإسلام والمسلمين دلت على إخلاصه (إن كان محتاجاً إلى دليل) وكشفت عن مبلغ إيمانه ، وهى قبوله أن يكون سفيراً بين النبى صلى الله عليه وسلم وكفار قريش عام الحُدَيبية .

وحديث ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج من المدينة فى العام السادس للهجرة قاصداً مكة معتمراً ، وساق معه الهَدْى فى جمع كثير من الصحابة ليس معهم من السلاح إلا السيوف فى أغمادها ، لأنه لا يبغى حرباً ولا قتالاً ، ولكن يريد زيارة البيت الذى ما كان يُصَد عنه أحد فى جاهلية ولا إسلام . فلما علم كفار مكة بذلك تشاوروا فيما بينهم وتبادلوا الرأى فيما يصنعون إزاء هذا الحدث الذى يريده محمد بهم ، وهو دخوله مكة فى قومه عليهم وبينه وبينهم حرب وقتال ، ولم يسبق له محاولة ذلك بعد أن خرج منها هو ومن هاجر من قبل ، وكيف يبتغى ذلك ولا تزال

سيوفه وسيوفهم تقطر منها دماء القتلى فى الغزوات من الفريقين . إنها منه محاولة جريئة وخدعة يريد أن يحتل بها مكة أو يتصل قومه بأهليهم فيها فيفسدوا عليهم أمرهم ويحبطوا تدابيرهم . إنه إن فعل ذلك وتمكن من دخول مكة وهم فيها فلن يُرفع لهم رأس ولا يُسمع لهم فى عشائرهم قول وتكون عليهم سبة لا تمحى وعارٌ لا يزول شينه . وكيف يفكر محمد فى ذلك وقد غمز عودهم فى حروبه معهم فما لانت قناتهم ولا ضعفوا أمامه ، ولا نكصوا على أعقابهم من حَرِّ قتاله ، وأجمعوا أمرهم على أن يمنعوه من دخول مكة مهما يبلغ الأمر بينهم . وجاءت الأنباء النبيَّ صلى الله عليه وسلم بما صمم عليه المشركون وأنهم قد تجهزوا لقتاله إن هو حاول تنفيذ ما عزم عليه حتى يحكم السيف بينه وبينهم ، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يكف أيدى المسلمين وأن يكون بيته حرماً آمناً على الدوام لا ينتهك بحرب ولا قتال ، فأرسلت قريش إلى النبى رسلاً يسألونه عن سبب مجيئه ، فلما أخبرهم الرسول عن قصده ورأوا حال أصحابه منه وما ساقوا من الهدى رجعوا إلى قومهم وأبلغوهم ما رأوا وأشاروا بتركه يؤدى عُمْرته ، فأنكرت قريش على الرسل ما أشاروا وازدادت حميتهم وكبرياؤهم وغرورهم إلا أن يمنعوا محمداً وأصحابه مما جاءوا من أجله ، وأيقنوا أنها حيلة يحتالون بها لدخول مكة والتمكن منها ، وأنهم إن دخلوها فلن يخرجوا منها والويل لقريش بعد ذلك ، فاستشار النبى أصحابه فأشاروا بوجوب المضى فيما أتَوا له . ثم رأى صلى الله عليه وسلم أن يرسل لقريش رسولاً يطمئنهم على حسن قصده وبرىء غرضه وأنه

وقومَه ما جاءوا مقاتلين ولكن مُعْتَمِرين . فعرض على عمر بن الخطاب أن يكون رسوله إليهم فقال : يا رسول الله إنى أخاف قريشاً على نفسى ، وليس بمكة من بنى عدىّ بن كعب أحد يمنعنى ، وقد عرفَتْ قريش عداوتى إياها وغلظتى عليها ، وهى فى ثورة شديدة وهياج لا يبلغ مداه ولا تُعرف غايته ومنتهاه ، وإنى إن ذهبت إليها لن أفلح فى مهمتى ولن أبلغ القصد فى غايتى ، ولكنى أدلك يا رسول الله على رجل أعزّ بها منى ، وله عند قريش يد ومنزلة يستطيع بلين جانبه وسهولة خلقه أن يكون خير سفير بينك و بينهم وهو عثمان بن عفان ، فدعاه الرسول وأمره أن يكون رسوله إلى قريش يبلغهم ما جاء من أجله وأنه إنما أتى مسالماً معتمراً لا يبغى حرباً ولا يريد قتالاً ، وآية ذلك أنه ساق الهدى وقلّده وليس مع رجاله من معدات الحرب إلا ما لا يستغنى عنه للحراسة ودرء الشر والعدوان ، وهو لذلك يأمل أن يُخَلّوا بينه و بين الكعبة التى لا يصد عنها أحد .

احتمل عثمان عبء الرسالة وهو يعلم أن قريشاً يغلى برجل حقدهم على محمد وأصحابه ، وأنهم يتحينون الفرص و يبغون به الدوائر ، وقد أرسلوا له الطلائع : منها من يتفقد أحواله و يقف على عدد رجاله ومبلغ استعدادهم ، ومنها من ينتهز الغِرةَ لينال من رجاله ما ينال قتلاً أو أسراً ، ولكن ما ذا يصنع عثمان ؟ أيخالف أمر الرسول و يعتذر عما ندب إليه ، وهو لم يعتد تمحل الأعذار الكاذبة ولا الجبن فى أى موقف فيه للإسلام

قوة ونصر؟ أم يقبل تلك السفارة على ما فيها من خطر شديد وسوء عاقبة على نفسه؟

لم يَطُل تردده حتى قبِل ما كلفه الرسول إياه وليفعل الله ما يريد .

قدم عثمان على قريش ودخل مكة فى جوار أبان بن سعيد ، وانطلق إلى أبى سفيان وأشراف قريش فبلغهم الرسالة فازداد عنادهم وتمادَوا فى كبريائهم وعز عليهم أن يدخل محمد وأصحابه مكة رغماً عنهم وهم الأعزة الأقوياء ، وأقسموا لا يدخلها هو ولا أحد أصحابه عَنْوة وهم فيها ، وليقاتلُنَّهم حتى يَفنَوا أو يُفنوهم ، وقالوا لعثمان : إن شئت أن تطوف أنت بالبيت فطف ، أمَّا محمد وأصحابه فلا سبيل لهم إلى ذلك . فقال لهم : ما كنت لأفعلَ ذلك حتى يطوف رسول الله ، إنما جئنا لنزور البيت ولنعظم حرمته ونؤدى فرض الله عنده وقد جئنا بالهدى معنا فإذا نحرناه رجعنا بسلام .

فأجابته قريش بما صممت عليه وأنها ستمنع محمداً من دخول مكة هذا العام عنوة ، وأن العرب لا تسمع أن محمداً دخل عليهم مكة أبداً ، وطال الجدال والمناقشة وطال احتباس عثمان عن المسلمين وترامت الأخبار بأن قريشاً قتلته غدراً وغِيلة ، فقلق المسلمون على عثمان أشد القلق وخشُوا أن يكون قد ناله من قريش شر ، وأن تكون قد غدرت به وقتلته فى هذا الشهر الحرام الذى ما كانت تجيز فيه أديان العرب لعدو أن يقتل عدوه فى حرم مكة ، وتمثل أمامهم الغدر فى أبشع صوره برجل ذهب إليهم يحمل رسالة سلم وموادعة ، فدعا

النبي أصحابه واستشارهم فى الأمر فقر الرأى على ألا يبرحوا حتى يناجزوا قريشاً وينتقموا منهم شر انتقام إن كان ما بلغهم صدقاً ، ثم دعا أصحابهُ وقد وقف تحت شجرة فى وادى الحديبية فبايعوه جميعاً على ألا يفروا حتى الموت . فلما انتهوا من بيعته ضرب بإحدى يديهِ على الأخرى وقال : هذه بيعة عثمان ، كأنه حاضر معهم وسميت هذه البيعة بيعة الرضوان ، ولم يطل بعد ذلك خفاء أمر عثمان إذ جاءت الأخبار بأنه لم يقتل وتأكد ذلك بعودته بنفسه إلى النبي فأبلغه ما قالت قريش ، وأنه لم يبق لديهم شك فى أنه وأصحابه جاءوا حاجين وأنهم ما كان لهم أن يمنعوا أحداً من العرب عن الحج أو العمرة فى الأشهر الحرم ، ولكن لما كانت قد وقعت بين طلائعهم التى يقودها خالد بن الوليد وبين رجال محمد مناوشات فإذا هم تركوه بعد ذلك يدخل مكة تحدثت العرب بأنهم انهزموا أمامه فتسقط هيبتهم وتنزل بين الناس مكانتهم ، لذلك هم يُصِرون على موقفهم من محمد هذا العام وليفكر هو وأصحابه فى الأمر لعلهم يجدون له حلاً يوفق بين الغَرضَين ، وإلا كانت الحرب طوعاً أو كرهاً ، فمادت المفاوضات واتصل الرأى بين الفريقين إلى أن كانت معاهدة الصلح بينهما بهذه السفارة المباركة التى قام بها عثمان خير قيام وكان أليق القوم بها ، حقنت دماء المسلمين وتجنبوا حرباً ما كانوا لها مستعدين ولا فيها راغبين . وبيمن طالع عثمان وحسن نقيبته عقد الصلح بين الطرفين فأمن كل جانب الآخر وانصرف المسلمون إلى إصلاح شئونهم وتقوية أمورهم ، وكان له ذلك الأثر البالغ الذى سماه الله بحق فتحاً مبيناً .

وفيما يلى مأثرة تَدُل على ما طبع عليه من لين الجانب ورقة القلب والرغبة فى تسكين ثائرة النفوس ، والقضاء على أسباب الشر ولو فدى ذلك بماله .

لما قُتِل عمر بن الخطاب بيد أبى لؤلؤة فيروزَ غلامِ المغيرة بن شعبة تواردت الأنباء بأن أبا لؤلؤة كان قبل الحادثة بيوم مجتمعاً برجل نصرانى اسمه جُفَينة جاء به سعد بن أبى وقاص من الأنبار ليعلم أبناء المسلمين بالمدينة الكتابة ومعهما الهُرْمزان ، وبينما هم يتناجَون مر بهم عبد الرحمن ابن أبى بكر ، فلما رأوه قاموا فسقط منهم خنجر له رأسان ونصابه فى وسطه ، ثم تبيَّن أن هذا الخنجر هو الذى قُتل به عمر (رضى الله عنه) .

فلما سمع ذلك عبد الله بن عمر اعتقد أن أباه قتل بتدبير هؤلاء الثلاثة وأنهم شركاء فى دمه ، وله دليل مادى هو الخنجر الذى وجد مطابقاً لوصف عبد الرحمن بن أبى بكر ، فاشتمل سيفه وقتل الهرمزان وجفينة وابنة أبى لؤلؤة . فلما بويع عثمان بالخلافة جىء بعبد الله ليقضى فى شأنه بحكم الله . فقال لأصحابه من المهاجرين والأنصار : أشيروا علىَّ فى هذا الذى فتق فى الإسلام ما فتق . فقال له على بن أبى طالب — وكان شديداً فى الحق — : أرى أن تقتله . وقال بعض المهاجرين : قُتِل عمر بالأمس ويُقتَل ابنه اليوم ! ! فقال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين إن الله قد أعفاك أن يكون هـذا الحدث ولك على المسلمين سلطان ، إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك . فقال عثمان : أنا وليهم وقد جعلتها دية واحتملتها فى مالى . إن الشريعة الإسلامية تعتبر عبد الله بن عمر

قاتلاً قتلاً عمدًا ولا تعتبر قتله قصاصاً لأنه قتل غير القاتل ، ومن قتلهم لم يثبت عليهم ثبوتاً قاطعاً اشتراكهم فى الجناية ، ولا يكون القصاص إلا بعد المحاكمة ، ولو ثبت اشتراكهم ما كان الحكم الشرعى يوجب قتلهم ، والشرع لا يأخذ فى الحدود والقصاص بالقرائن . فكان عبد الله مستحقاً للقصاص ولو كان عمر حياً وقد صنع ابنه ما صنع ما تردد فى القصاص منه ، ولكن عثمان (رضى الله عنه) رأى ما رآه بعض الصحابة من استفظاع قتله ولما يجف دم أبيه ، وتشاءم أن يكون بدء خلافته إدخال المصاب المضاعف على آل الخطاب . نخروجًا من هذا المأزق تحمل الدية فى ماله ، ووقى المسلمين شرًا كبيرًا وجنبهم مصاباً أليماً . ونحن إذا نظرنا فى الظروف التى احتفت بالحادث ، وما عرف من تاريخ الهرمزان ومن قتل معه ، لا يخالج النفس شك فى أن لهما مدخلاً فى تلك الجريمة النكراء .

تضحية عثمان بحياته فى سبيل وحدة الاسلام :

لم يكن عثمان بالرجل الضعيف الخائر العزيمة الذى تطير نفسه شعاعًا إذا ما ادلهمت الخطوب وأحيط بصنوف الشدة ، كما فهم كثير من المؤرخين استنباطاً من سياسة اللين التى قابل بها العصاة الثائرين ، فإن الحوادث التى انتابته فى خلافته تدل على شجاعته ورباطة جأشه : فقد أخمد الثورة فى بلاد الفرس وحمل راية الإسلام خفاقة فى كل مكان ، وطارد الروم واضطرهم إلى التقهقر داخل بلادهم حيث هزمهم هناك ،

ورفرف علم الإسلام على شاطئ البحر الأسود مع ما كانت عليه دولة الروم من قوة وشدة بأس فهل هذه الأعمال أعمال رجل ضعيف النفس فاتر العزيمة خائر القلب ينكمش أمام الصعاب وينزوى إذا أحدقت به الأخطار ؟ الحق أنه من التجنى على عثمان أن يُؤَول موته شهيداً إلى جبن وضعف .

لم يكن هذا الإحجام عن أخذ الثائرين بالشدة ليؤول بضعف النفس وخور العزيمة ، فهذا الذى ذكر من مواقفه أمام الحادثات الجسام يدل على ما كانت تنطوى عليه نفس الخليفة من قوة وجلد عظيمين ؛ ولكن كراهيته أن تراق دماء المسلمين على يديه وقفته من الثائرين ذلك الموقف السلبى الذى جر عليه تهمة الضعف واللين .

لقد لقى المغيرة عثمان وهو محصور فقال له : يا أمير المؤمنين إنك أمام العامة وقد نزل بهم ما ترى ، وإنى أعرض عليك خصالا ثلاثاً ، اختر إحداهن : إما أن نخرج فنقاتلهم فإن معك عدداً وقوة وأنت على الحق وهم على الباطل ، وإما أن نخرق لك باباً سوى الباب الذى هم عليه فنعقد على رواحلك فتلحق بمكة فإنهم لن يستحلوك وأنت بها ، وإما أن تلحق بالشام فإنهم أهل الشام وفيهم معاوية .

أبى عثمان أن ينزل على أحد هذه الآراء ، وقابل الصدمة بنفس وثابة وقلب قد ملىء يقيناً واطمئناناً .

ولو أن عثمان كان من خور العزيمة كما يظن بعض المؤرخين الآن ، لاستمع لرأى المغيرة ونجا بحياته ، ولكنهُ كان حريصًا على أن يكون

نبراساً لجميع الأجيال التالية يضىء السبيل إلى العمل على توحيد صفوف المسلمين بأى ثمن ، ودرء كل ضرر يصيبهم ولو كان فى ذلك حتف النفس .

تأمل ما روى عن عبد الله بن عامر قال : كنت مع عثمان يوم الدار فقال : أعزم على كل من رأى أن لى سمعاً وطاعة أن يكف يده ويلقى سلاحه ، فألقى القوم أسلحتهم . وكان له عبيد عشرون حملوا السلاح ليقاتلوا عنه يوم حصره ، فمنعهم وقال : من ألقى السلاح فهو حر لوجه الله تعالى ، فامتنعوا عن القتال وألقوا السلاح . وما كان عليه من حرج لو أنه أمر أنصاره بالدفاع عنه والتنكيل بالثوار ، وأن يستعمل حقه الإدارى والسياسى ، لكنهُ عثمان الرفيق الرحيم .

وحسب عثمان فخراً ورفعة مكانة ما روى عن أبى سعيد الخدرى قال : ارتقبت النبي (صلى الله عليه وسلم) ليلة من أول الليل إلى أن طلع الفجر يدعو لعثمان بن عفان يقول : اللهم عثمان بن عفان ، رضيت عنه فارض عنهُ ، فما زال رافعاً يديه حتى طلع الفجر .

ومن آثار عثمان (رضى الله عنهُ) فى إنجاح الدعوة الإسلامية جمعه الناس على مصحف واحد : ذلك أنه لما تعددت القراءات واختلف فيها أهل الأمصار ، وتفرق القراء فى البلاد التى افتتحها المسلمون ، صار كل فريق يزعم أنه أصوب قراءةً وأصدق رواية من الآخر ، وخيف على المسلمين من التفرق ، وعلى كتاب الله من هذا الاختلاف . فرأى عثمان أن يجمع المسلمين على قرآن واحد ، وأرسل إلى أم المؤمنين

حفصة أن ترسل إليهِ بالصُّحف التى كتبت فى أيام أبى بكر لينسخ منها .
وخطب فى الناس ، وعزم على كل رجل عنده شىء من القرآن إلا جاء به ،
فكان الرجل يجىء بالورقة والأديم فيهِ القرآن حتى جمع من ذلك كثرة ،
ثم دعاهم رجلاً رجلاً فناشدهم : أسمعت رسول الله (صلى الله عليهِ وسلم)
وهو أملاه عليك ؟ فيقول نعم . فلما فرغ عثمان من ذلك قال :
أين أكتب الناس ؟ فقالوا : كاتب رسول الله (صلى الله عليهِ وسلم)
زيد بن ثابت . قال : فأى الناس أعرب ؟ قالوا سعيد بن العاص .
قال : فليُمْل سعيد وليكتب زيد . وساعدهما عبد الله بن الزبير
وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فكتب زيد خمسة مصاحف فرقها
عثمان فى الأمصار ، وأوجب على المسلمين القراءة على حسبها ،
وأمر بإحراق ما عداها .

وهذا العمل الجليل كاف فى ترجيح فضل عثمان ، وفى الدلالة على
بعد نظره وحسن حياطته الإسلام والمسلمين ؛ لأنه قضى على تلك
التفرقة التى لو استمرت لكان لها من الأثر السيئ والعاقبة الوخيمة
ما الله عالم به . ذلك إلى أنه سد على المنافقين والكافرين السبل ،
وسلك بالمسلمين المَحَجة الواضحة والصراط السوى ، ورد عنهم شراً
وبيلا وبلاء مستطيرا . فلله عثمان ولله ما صنع .

شخصية عثمان

(١) رحيم ، رفيق ، تقى ، ضعيف أحياناً — طيب القلب

(٢) ثرى — كريم —

(٣) ذو مكانة ممتازة عند الرسول والصحابة.

رحيم . رفيق . ضعيف . ذلول . طيب القلب

ولى عثمان الخلافة فى السبعين من عمره . سن العطف والرقة والتردد ، فكانت شيخوخته باعثاً على ازدياد رقته .

على أنه لم يعرف فى صباه ولا جاهليته بالخشونة والقسوة ، بل كان رحيما حييا ، والرحمة والحياء نَبْعَتَان من أصل ، وليس أبلغ فى تصوير حياء عثمان من قول الرسول عليه السلام : « ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة » .

وقد تنوعت مظاهر رقته فى صور شتى كل منها يثير الإعجاب بخلقه ونبله ؛ على أن من الإنصاف أن نقرر أن الرحمة كانت أحياناً فى غير مواضعها فكانت ضعفاً .

حسن عشرته لزوجه

فقد كان عثمان عطوفاً على زوجه ، حسن العشرة لبيته . وحسبنا أنه مع سبقه إلى الإسلام ، وزعامته فى المجاهدين ، ومكانته عند الرسول تخلى عن غزوة بدر ليمرض زوجه رقية بنت الرسول عليه السلام ، وأراد الرسول أن يخفف عن عثمان رزء التخلف عن أولى مواقع المسلمين مع الكفار فأسهم له مع الفاتحين وعدّه بدريا ، ثم أراد أن يواسيه فى رقية التى توفيت يوم النصر فزوجه شقيقتها أم كلثوم .

أية شهادة بحسن العشرة فى تكرار الزواج ! !

ولو أن عثمان ممن يصهرون إلى العظماء لمآرب يقضونها لحسب لا لإسعاد الزوجات ، أو لو أنه طلعة إلى حسن الأحدوثة فى الناس وكسب الصيت ، أو لو أنه ممن يهون عليهم حلائلهم فى الشدائد — لو أنه على شىء من ذلك لاستبق إلى بدر يسجل لنفسه مجداً وفخراً ، ويكسب غنماً ونصراً ، ويشارك الرسول فى جهاده وغزوته الأولى . لكنه لزم داره يمرض زوجته لعلها أن تبرأ فتسعده وتعينه على مشقات الجهاد الطويل فيما بعد ، وإن حم القضاء فيها فقد أرضى قلبه ووفى لها حتى فى ساعات الحرج .

بغضه سفك الدم

ولقد كان يبغض سفك الدم ، وإن كان فى حقنه خسارة له ، وعدوان عليه . فإنه أول توليته كان عليه أن يعالج قضية خطيرة هى قتل عبد الله بن عمر الهرمزان وجفينة وبنت أبى لؤلؤة ، لأن الهرمزان وجفينة وأبا لؤلؤة اشتركوا — كما علم — فى تدبير المؤامرة لاغتيال أبيه وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

***

على أن رقته كانت تتعارض أحياناً مع صالح الأمة والسياسة فأحر بها أن تسمى ضعفاً وسوء تقدير ، فإن الفتنة لما اشتدت فى الأمصار أرسل يستقدم عماله إليه ، فلما مثلوا أمامه (معاوية عن دمشق وعبد الله بن أبى سرح عن مصر ، وسعيد بن العاص عن الكوفة ،

وعبد الله بن عامر عن البصرة والبحرين ، وعمرو بن العاص ، وكان بالمدينة) . قال لهم : « إن لكل امرئ وزراء ونصحاء ، وإنكم وزرائى ونصحائى وأهل ثقتى ، وقد صنع الناس ما قد رأيتم ، وطلبوا إلى أن أعزل عمالى ، وإن أرجع من جميع ما يكرهون إلى ما يحبون ، فاجتهدوا رأيكم » .

فقال عبد الله بن عامر : « يا أمير المؤمنين أرى أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك ، وأن تُجَمِّرَهم فى المغازى حتى يذلوا لك ، فلا يكون هم أحدهم إلا نفسه » .

وقال سعيد بن العاص : « إن كنت تريد رأينا فاحسم عنك الداء ، واقطع عنك الذى تخاف ، واعمل برأيي تصب » .

فقال عثمان : وما هو ؟

قال سعيد : « إن لكل قوم قادة متى تهلك يتفرقوا ولا يجتمع لهم أمر » .

فقال عثمان : « هذا هو الرأى لولا ما فيه » .

وقال معاوية : « يا أمير المؤمنين رأيى أن ترد عمالك إلى أعمالهم على أن يكفيك كل عامل ولايته ، وأنا ضامن لك الشام » .

وقال عبد الله بن أبى سرح : « يا أمير المؤمنين إن الناس أهل طمع فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم » .

وكانت الحكمة كلها فى رأى ابن عامر ، فإن المسلمين شغلوا فى زمن أبى بكر وعمر بالجهاد ، واستراحوا فى زمن عثمان ، فوجد الشيطان

فى الرءوس الفارغة مرتعاً له ، فقد كان عمر لا يدع للعرب فرصة تمكنهم من الإخلاد للراحة ، والإيواء إلى ظل النعيم والرفه والاستمتاع بالمال والفراغ ، بل زَجّ بهم فى معترك الحياة ومعترك الحرب معاً ، فشغلهم عن الرفاهة والفتنة ؛ بل شغلهم عن نفوسهم ليأمنوا شر الأمم المجاورة ، ولينشروا دين الله ، ولذا لم ينجم فى زمانه فرقة ، ولم يتناد الناس إلى عصبية ولا نعرة .

وكانت حكمة وقسوة فى رأى سعيد بن العاص ، لكنها قسوة على قلة لصلاح المجتمع كله ، لكن عثمان لم يأخذ بهذا ولا بذاك ، ثم كان عليه إذا أن يأخذ برأى معاوية فيرد عماله إلى أعمالهم ويفوض لهم الأمر يستصحلونه بما يشاءون ، وَلا يلقى سمعه إلى الشكايات المغرضة ، لكنه لم يفعل هذا أيضاً ، فقد بدأ بعزل سعيد بن العاص والى الكُوفة .

على أنه فوق هذا كله لم يستعطف الناس بالمال كما أشار ابن أبى سرح ، ونحسب أن بيت المال لا يكفى لاستعطافهم ، ولو قد فعل ما كان ذلك إلا علاجا مؤقتاً لا يحسم الداء ولا يخمد الفتنة .

***

ومن قبيل رقته أو ضعفه فى مواضع لا يليق بها غير الحزم والصرامة وإن أراد أن يتوقى الفتنة جهده ، وأن يقطع على الشاغبين كل سبيل فلعل نزغات الشياطين أن تنجلى عن صدورهم ، ولعلهم أن يفيئوا إلى رشدهم — أنه كان يذعن لرغبات المحكومين ضد حكامهم من غير أن يتفحص

ويحقق ، فقد حدثوا أن سعيد بن العاص والى الكوفة خرج إلى المدينة بعد أن وزع عماله على أعمالهم فى البلاد ، فانتهز رءوس الفتنة الفرصة ، وأشاعوا أنه ذهب يطلب من الخليفة إنقاص عطائهم ، ودعوهم للذهاب إلى عثمان يستعفونه منه . وبينا هم فى طريقهم التقوا بسعيد قادما إلى عمله ، فقالوا له : « لا نريد أن تدخل علينا والياً » .

فقال لهم : « هل يخرج الألف لهم عقول إلى رجل واحد ؟ إنما يكفى أن ترسلوا لى رجلاً وإلى أمير المؤمنين رجلاً آخر . »

ثم رجع عنهم ، وقد قتلوا مولاه ، وأخبر عثمان بالذى كان منهم ، فقال له : من يريدون ؟ قال : أبا موسى الأشعرى ، فقال عثمان : « قد أثبتنا أبا موسى عليهم ، والله لا نجعل لأحد عذراً ، ولا نترك لهم حجة ولنصبرن كما أمرنا حتى نبلغ ما يريدون » .

ومهما يكن من شىء فإن إجابة الثوار إلى طلبهم بدون تحقيق ولا تمحيص ولا تحر تفتح الباب على مصراعيه لذوى الأهواء ، وتضعف من هيبة الحكام فى نفوس المحكومين ، وتملى على الحكام أن يتملقوا الرعية ويجاروها فيما تحب وتكره ، وإن جاروا أحياناً على حدود الله ، وخالفوا قوانين الدولة . وكتابه إلى أهل الكوفة دليل على أن السلطان قد خرج من يده إلى أيدى الغوغاء والمفسدين ، فقد كتب إليهم بعد رد عامله وقتل مولاه كما بينا ، وبعد طلبهم أبا موسى الأشعرى والياً عليهم يقول :

« أما بعد فقد أمّرت من اخترتم وأعفيتكم من سعيد ، والله لأُقْرِضَنَّكم عرضى . ولأَبْذُلَنَّ لكم صبرى ، ولأستصلحنكم بجهدى ، فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يعصَى الله فيه إلا سألتموه ، ولا شيئاً كرهتموه لا يعصى الله فيه إلا استعفيتم منه ، انزل فيه عند ما أحببتم حتى لا يكون لكم على حجة »

وكتب بمثل هذا إلى الأمصار .

وهى نغمة جديدة فى الضعف لم يسمع الناس بمثلها من عمر ولا من أبى بكر ، وسلاح فى أيدى الشاغبين والمفتونين يشهرونه فى وجوه الولاة الصالحين ، ألم يعدهم الخليفة أن يجيب رجاءهم إلى كل شىء يحبونه ولا معصية لله فيه وأن يعفيهم من كل شىء يكرهونه ما دام لا مخالفة لله فيه ؟

وإذاً فليطلبوا منه عزل من يشاءون ، وتولية من يشاءون ، وإذا حكم الشعب بهواه فسد وانحلت عراه

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

***

ومن مظاهر اللين فى عثمان أنه كان قريب الإذعان لمشيريه والانقياد لهم إذا كانت مشورتهم لا تريق دما ؛ فإن رءوس الفتنة لما جاءوا المدينة أول مرة وشاع أنهم يريدون عزل الخليفة أو قتله ، سأل عثمان علياً

أن يأخذ بناصره وأن يرد القوم عنه لأنه لا يحب دخولهم عليه فإن فى ذلك جرأة على مركز الخلافة ، ووعد علياً أن ينزل عند رأيه وأن يصير إلى ما أشَارَ به عليه، فخرج على إلى القوم وركب معه المهاجرون والأنصار، وما زالوا بالقوم حتى رجعوا ، ثم خرج عثمان إلى المسجد فخطب خطبة نزع فيها ، وأعطى الناس من نفسه التوبة ، فلما رجع إلى منزله وجد فيه مروان وسعيداً ونفراً من بنى أمية لم يكونوا سمعوا الخطبة ، فقال مروان : يا أمير المؤمنين ! أتكلم أم أسكت ؟ فقالت نائلة زوج عثمان بل اسكت فإنهم والله قاتلوه ومؤثموه ، إنه قال مقالة لا ينبغى أن ينزع عنها . فقال عثمان : تكلم. فقال مروان : « بأبى أنت وأمى لوددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع متبَّع فكنت أول من رضى بها وأعان عليها ، ولكنك قلتها بعد أن ثارت الثورة واندلع الشر ، والله لَإقامة على معصية تَستغفر الله منها أجمل من توبة تُخَوف عليها ، وما كان يجب عليك أن تقر بالخطيئة وقد اجتمع على الباب أمثال الجبال من الناس » فقال عثمان : أخرج إليهم فكلمهم فإنى أستحيي أن أكلمهم .

خرج مروان إلى القوم فكلمهم كلاماً شديداً ، وانتهرهم بغلظة وعنف وشتمهم ، فأغضبهم وأغضب علياً ، وأحس عثمان بخطئه فذهب إلى على يسأله أن يؤازره ولا يخذله لما له من حق القرابة ، فأبى على وذكره بما كان من عصيانه والإصغاء إلى مشورة مروان وغيره من بنى أمية ، فقام عثمان منكراً مغضباً .

والحق أن عثمان أحسن أولا فى اتباع مشورة على وتفنيد التهم التى زعمها الثوار ، وهى طريقة جرى عليها عثمان وارتضاها فى محاولة قمع الفتن ، ولكنه أخطأ فى الانقياد لمروان والتأثر بنقده وتفويض الأمر له حتى لقد أغضب الثوار وأغضب علياً .

ثم لنفرض أن تفنيد عثمان للتهم وردَّه عليها بمسمع من الثوار كان خطأ ، أفَيرْفَعُ هذا الخطأ شتمُ مروان إياهم وإغلاظه ومخاشنته ؟ ؟ ! !

* * *

على أن له رأياً فى رد الحكم بن أبى العاص وآله إلى المدينة — وقد نفاهم الرسول إلى الطائف — لا مرد له إلا ما وسم به من انقياد لزعماء بنى أُمية ، فقد جاء عثمان الرسولَ صلى الله عليه وسلم ورجاه أن يردهم فأبى ، ثم كلم أبا بكر فى خلافته فرفض ، ثم طلبه من عمر فى حكمه فقال له : يخرجه رسول الله وتأمرنى أن أدخله ! ! إياك يابن عفان أن تعاودنى فيه بعد اليوم ، فلما ولى عثمان رده وأهله ، فضج كبار الصحابة وجاءوا إليه يعتبون عليه ، فذكر لهم قرابتهم منه وأنه لا يستطيع غير ذلك ، فنقَموا منه واستنكروا أن يرد إلى المدينة رجلا طرده الرسول منها ، ولعنه حتى صار مشهوراً بأنه طريد رسول الله ، وأن يكرمه ويصله بمال عظيم .

والحق أن رده للحكم وآله بعد أن رفضه الرسول والخليفتان جرأة فى ضعف وضعف فى جرأة ، جرأة على الرسول وخليفتيه ، وضعف أمام القرابة وحقوقها ، لكن مراعاة القرابة التى تجلب سخط الأجلاء من

الصحابة وتخالف أمر الرسول إنما هى خروج من التوَقِّى الذى التزمه عثمان .

* * *

ومن صفات الرفيق اللين التقوى ، لأنها خشية من الله وخوف من عقابه ، وتطلع إلى ثوابه ، وهذه صفات توائم النفسَ الرقيقة والعاطفة الحساسة ، وقد كان عثمان تقياً ورعا ، يصوم الدهر ويحج بيت الله كل عام ، وتعارف الناس تقواه ، وقدرها رسول الله . روى ابن حجر فى الإصابة أن رسول الله قال : « لكل نبى رفيق ورفيقى فى الجنة عثمان » . وعن عائشة لما بلغها مقتله : « قتلوه وإنه لأوصلهم للرحم . وأتقاهم للرب » ثم هو أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض .

* * *

وبعد — أفكان لين عثمان صالحاً لحكومته وقتذاك ؟ أنجح لينه مع الناس فأخمد الفتن كما أراد ؟ يحزننا أن يكون الجواب ما نعلم من فوضى وثورات واجتراء على صرع الخليفة نفسه .

فحياء عثمان ولينه ورقته اقتضته أن يتسمح مع من يؤذيه ، وهذا لا يصلح فى السياسة إذ لا بد للراعى من مهابة ورهبة . وقصة عمر مع سعد بن أبى وقاص مشهورة — كما سبقت الإشارة إليها — على مكانة سعد وبلائه فى القادسية .

على أن عهد عثمان عهد فتن ومؤامرات ودعوات سرية وجهرية ظاهرها الغيرة على الإسلام والمسلمين وباطنها النفاق وتقويض دعائم الإسلام . فلم يكن عهد من عهود المسلمين محتاجا إلى الشدة أكثر من ذلك العهد . ولو أنه أهدر دماء زعماء الفتن كما أشار عليه بعض عماله لأراح واستراح ، وإنهم ليستحقون الإهدار ، وإن له فى رسول الله أسوة حسنة ؛ فحين كان يتهيأ لغزوة تبوك كان المنافقون يبغضون المسلمين فيها « وقالوا لا تنفروا فى الحرّ قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون » فلم ير النبى أن يتهاون معهم خيفة أن يستفحل أمرهم ، ورأى أن يأخذهم بالحزم ، فقد بلغه أن ناساً منهم يجتمعون فى بيت سويلم اليهودى يثبطون الناس ويلقون فى نفوسهم التخاذل والتخلف عن القتال ، فبعث إليهم طلحة بن عبيد الله فى نفر فحرق عليهم بيت سويلم ، ففر أحدهم من ظهر البيت فانكسرت رجله واقتحم الباقون النار فأفلتوا ، ولكنهم لم يعودوا لمثلها ، ثم كانوا مثلا لغيرهم فلم يجرؤ أحد بعدهم على مثل فعلهم .

وبعد عودته من غزوة تبوك وجد أن المنافقين شر عظيم تخشى مَغَبّته وخطر جسيم يستشرى إذا لم تجتث جرثومته . ذلك أن جماعة بنوا مسجداً بذى أوان بينه وبين المدينة ساعة ، وإليه كان يأوى جماعة من المنافقين يحاولون أن يحرفوا كلام الله عن مواضعه ، وأن يفرقوا بذلك بين المؤمنين ضراراً وكفراً ، وطلبت هذه الجماعة إلى النبي أن يفتتح

المسجد بالصلاة فيه وكان طلبهم هذا قبل تبوك ، فاستمهلهم حتى يعود ، فلما عاد وعرف أمر المسجد وحقيقة ما قصدوا إليه من إقامته أمر باحراقه ، فضرب لذلك مثلا ارتعدت له فرائص المنافقين فخافوا وانزووا .

لو أن عثمان قسا على المنافقين وعلى المسلمين المغرضين لسلم وسلمت الجماعة معه ، لكنه كان يعالج الفتن بالهوادة ، وشطط الناس فى مطالبهم بالإجابة ، وكان يعتدى عليه وعلى حقوقه فيرضى ، ويغضى العين على القذى ، ثم كان يعالج داء بداء ، ذلك أنه ظن أقرباءه أكثر إخلاصاً له من الناس فولاهم وآثرهم فزاد الناس نقمة عليه ونفوراً منه .

وقد وصف السيد أمير على عثمان بقوله « كان عثمان شيخاً كبيراً ضعيف الإرادة ، ولذا لم يستطع الإضطلاع بأعباء الحكم مع نزاهته وفضائله الكثيرة » .

ولقد كان لعثمان فى عمر أسوة حسنة فقد أقبلت الدنيا على المسلمين فى عهده ، فانفسحت ممالكهم وانهال عليهم الثراء وتنعموا بعض التنعم ، وإن اخشوشنوا فى مأكلهم وملبسهم واقتصدوا فى انفاقهم على أنفسهم خوفا من عمر وقسوة عمر كما يتبين ذلك من صنعه مع مع خالد بن الوليد لما أعطى الأشعث بن قيس عشرة آلاف ، فكان ذلك سبباً لاعتقاله بفضل عمامته وسؤاله عن الدراهم التى أجاز بها الأشعث : « أمن إصابة أصابها أم من ماله ؟ . . . » وعزله عن عمله لأن عمل خالد كان بين الخيانة والإسراف وكلاهما شر .

وكان قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج إلى أطراف الأرض إلا بإذن كما سبق فشكوه فدافع عن رأيه بأنه يخشى عليهم الفتنة ، وضعف عثمان ولينه وسهولة مقادته هى التى سهلت لهؤلاء الانسياح والافتتان كما سبق .

ومن عجب أن عثمان كان قد تنبه إلى ذلك ، لكن لم يأخذ به ، فإنه كتب إلى العامة من المسلمين بالأمصار : «أما بعد فإنما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع . فلا تلفتنكم الدنيا عن أمركم فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم : « تكامل النعم ، وبلوغ أولادكم من السبايا ، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن » .

وعثمان فى نظر التاريخ ملوم فى حِرْصِه على الخلافة بعد ما تحقق الثورة عليه ، وكان فى وسعه أن يستقيل ويخلى نفسه من أعباء الحكْم ، ويترك الأمر شورى ، أو يعقد مؤتمراً من جلة المهاجرين والأنصار فإما أقروه فى منصبه . وإما عزلوه وولوا غيره ، لكنه استمسك بالخلافة ، وعجز عن الخروج من المأزق ، وفى الوقت نفسه عجز عن أخماد الفتنة .

ثرى ، كريم ، مترف

كان عثمان ثرياً ثراء عظيما ، حدث عن نفسه فى خطبة يرد فيها على شانئيه من الثوار فقال : « ومالى من بعير غير راحلتين ، ومالى من ثاغية ولا راغية ، وإنى قد وليت وإنى أكثر العرب بعيراً وشاء فمالى اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجى ، أكذلك هو ؟ قالوا نعم » إلى أن قال : « وقالوا إنى أحب أهل بيتى وأعطيهم ، وأما اعطاؤهم فإنى إنما أعطيهم من مالى ، ولا أستحل أموال المسلمين لنفسى ، ولا لأحد من الناس ، وقد كنت أعطى العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالى أزمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر ، وأنا يومئذ حريص شحيح ، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتى وفنى عمرى ووزعت الذى لى فى أهلى قال الملحدون ما قالوا ؟ ؟ » ويظهر من دفاعه عن نفسه فى هذه الخطبة أنه أعطى أقرباءه ماله ، ولعل هذا هو السر فى كبر التركة التى يحصونها بعد وفاته ؛ لأنهم فى الحقيقة أحصوا ما كان له وتنازل عنه لأقاربه ، فقد ذكر المسعودى عن عبد الله ابن عتبة أن عثمان يوم قتل كان عند خازنه من المال خمسون ومائة ألف دينار ، وألف ألف درهم (١١٥,٠٠٠ جنيه) وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما (١٠٠,٠٠٠ دينار) (٥٠,٠٠٠ جنيه) وخلف خيلا كثيراً وإبلا[١]

✡ ✡ ✡

---

(١) مروج الذهب ص ٤٣٣ ج ١ .

لكن كثيرين من المسلمين كانوا على ثراء ، غير أنهم لم يصنعوا صنيع عثمان فى جوده الذى تضرب به الأمثال .

وكان فى قدرة عثمان أن يقتر على نفسه وأهله ضنا بماله ورغبة فى اكتنازه ، لكنا سنبسط بعد قليل أنه كان مترفا ومتلافاً . ثم كان فى طاقة عثمان أن ينفق ماله على نفسه ويستمتع بما يستحله من ألوان النعمة غير عابىء بحال المسلمين وحاجتهم ، وغير مصيخ لجؤار الفقراء والمعوزين من إخوانه فى الدين كما هى حال أغنياء العالم كله اليوم ، لكن عثمان أشرك المسلمين معه فى ثرائه مرات عد ، فى كل منها جلال وعظمة وعبرة . وحسبه أنه جهز جيش العسرة كما تقدم (غزوة تبوك) من ماله فبذل ما لم يبذل حد ، إذ أمد ذلك الجيش بألف بعير[1] وخمسين فرساً ، ويقال إنه لما جاء إلى الرسول صلوات الله عليه يحمل إليه المال وقدره ألف دينار جعل رسول الله يقلبها وهو يقول : ما ضر عثمانَ ما صنع بعد اليوم . وألف البعير تساوى اليوم ٢٥,٠٠٠ جنيه على قل تقدير والخمسون فرساً تساوى ٢,٠٠٠ جنيه على أنه قدم للرسول ٥٠٠ جنيه وإنه لسخاء من عثمان ما مثله سخاء أن ينفق من ماله على جيش المسلمين ٢٧,٥٠٠ جنيه وهى قيمة كبرى إذا قيست إلى ثروته .

ويزيدها قيمة أن الوقت كان وقت عسرة والبلاد فى جدب ، ولذلك تباطأ المسلمون فى الخروج ، وأن الحرّ كان شديداً والثمار قاربت

(١) وفى رواية ثلثمائة بعير .

النضج والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص إلى الروم بعد ما صلَوا بنارهم فى مؤتة ، والمنافقون يكيدون للإسلام والمسلمين فيثبطون العزائم ، ويشيعون قالة السوء لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يثنه شىء من ذلك فدعا المسلمين إلى الجهاد والموسرين إلى الإنفاق فصنع عثمان ما صنع ، وكان له فضله فى جنى ثمارها ، فقد ثأر فيها المسلمون لأنفسهم من الروم فى غزوة مؤته ، وسبقوا إلى الروم الذين يستعدون لغزو حدود العرب الشمالية غزواً ينسى الناس انسحاب العرب الماهرَ فى مؤتة ويطمس معالم الإسلام ، وقد خشيهم جيش الروم بعد ما تصدى لهم فى تبوك فانسحب إلى الشام يتحصن فى حصونها ، ولهذا أثره فى ثقة العرب بقوتهم ، وخشية الروم من صولتهم ، ثم إن صاحب أَيْلة وأهل الجرباء وأَذْرُح أعطوا النبىَّ الجزية ، وبعث النبى خالداً بفريق من الجيش فى العودة إلى دُومة الجندل فأسر صاحبها واستولى عليها ، وبهذه الغزوة تمت كلمة ربك فى شبه الجزيرة كلها ، وأمن النبى العدوَان عليها ، وتتابعت بعدها وفود العرب على النبى يعلنون إسلامهم ، ويقدمون إخلاصهم ، وكانت خاتمة الغزوات .

وإذا كان عثمان قد أسهم هنا فى رد العدوان والأخذ بالثأر وإرهاب الخصوم ، وفسح الطريق للدعوة ، فإنه انفرد قبل ذلك بشراء بئر رومة (كما تقدم) .

هنا بذل عن طواعية أملاً فى ثواب الجنة ، وإنه لسخاء من عثمان أن

يتبرع للمسلمين بعشرين ألف درهم (٥٠٠ جنيه) وإنه لفضل من عثمان أن يسر للمسلمين ماءهم وحفظ حياتهم وأبقى لهم عزتهم واعتزازهم فلا سلطان لليهودى عليهم ، ولا فضل منه إليهم ، ولقد أحس اليهودى شدة حاجتهم إلى بئره فاشتط فى ثمنها اشتطاطاً ، لكن اشتطاطه كان دون سخاء عثمان وحبه لخير المسلمين والإسلام .

على أن جزاءه عظيم ، فهو مشرب فى الجنة ، فما أعذب وما أحلى وما أجمل وما أبهى !!

***

ومن هذا القبيل أن رسول الله قال من يزيد فى مسجدنا ؟ فاشترى عثمان موضع خمس سوار فزاده فى المسجد .

فهو يوسع على المسلمين فى حياتهم ويوسع عليهم فى مواضع صلواتهم .

وليس لقائل أن يذهب إلى أن سخاء عثمان من ذلك النوع الذى يشترى به السمعة وحسن الأحدوثة ، ويدعم به الجاه ، فلم يكن الرجل جلاب شهرة ، ولا كلفاً بسمعة ، ولم يكن له مطمع يريد أن يحققه ، ولا مطمح يصبو إليه ، ولطالما أنفق على أقاربه وتبرع لقويهم وضعيفهم ، ثم أين اجتلاب الشهرة فى تحمله ديات القتلى الذين قتلهم عبد الله بن عمر من ماله الخاص كما قدمنا ؟ ؟

اللهم لا أرب له إلا حسم الشر وإن اقتضاه خسارة كبيرة فى ماله .

وكان رضى الله عنه على غناه وسخائه يحب التنعم ، أفيسخو على

المسلمين سخاء ثم يضن على نفسه وعلى بيته ؟ لا . إن هذا لهو الخرق في الرأى والشذوذ فى الطبائع مع تصديقنا بصحة وقوعه من بعض الناس

لقد كان عثمان يحب الطعام الجيد ، واللباس الفاخر ، والمسكن الأنيق ؟ فقد سكن فى داره التى بناها بالمدينة بالحجر والكلس ، وجعل أبوابها من الساج والعَرْعَر (السرو) واقتنى الأموال والجنان والعيون بالمدينة وغيرها ، وإذا حج ضرب له الفسطاط بمنى ، وكان يأكل الطعام فى أطيب أصنافه ، فقد روى الطبرى عن عمرو بن أمية الضمرى قال : وإنى كنت أتعشى مع عثمان خزيرة (شبه عصيدة بلحم) من طبخ من أجود ما رأيت فيها بطون الغنم ، وأدمها اللبن والسمن . وعن عبد الله بن عامر قال : كنت أفطر مع عثمان فى رمضان فكان يأتينا بطعام هو ألين من طعام عمر ، وقد رأيت على مائدة عثمان الدَّرْمَك الجيد (نوع من الدقيق) وصغار الضأن كل ليلة ، كما روى أن عثمان أول من نخل له الدقيق .

على أنهم رووا أنه كان يشد أسنانه بالذهب . ورأينا أن لا جريرة فى شىء من هذا ، لأن عثمان يجود على الناس وعلى نفسه بماله ، وهذه متع مباحة « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق . . » ولكن أعداءه اتخذوها ذريعة للتأليب عليه ، وراجت دعواهم عند السُّذَّج والأغرار ، ولو أنهم تفقهوا لوجدوا أن المظهر الحسن من واجبات الملوك والأمراء وإن كلفهم كثيراً ، وكان الدليل أمامهم فى حياة معاوية بالشام .

مكانتـــه

كانت له رضى الله عنه عند الرسول وعند المسلمين مكانة عزيزة فهو أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة الذين رشحهم للخلافة عمر رضى الله عنه ، فقد قال لأصحابه وأولى المكانة من قريش بعد الاعتداء عليه : « عليكم هؤلاء الرهط الذين قال فيهم رسول الله صلوات الله عليه إنهم من أهل الجنة : على بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، فلتختاروا منهم رجلاً . . . »

على أن المفاوضة بين عبد الرحمن بن عوف وعلى كما تقدم كشفت عن تقدير على لعثمان . وهما إذ ذاك فى ميزان النجاح فى الانتخاب متوازنان. رووا أن عبد الرحمن بن عوف فوّض أن يختار أفضل الستة الذين عينهم عمر ، فكان أول ما تكلفه من الأعمال أن راح يخلو بعلى فيقول له : أنت تقول إنى أحق من حضر بالأمر لقرابتك وسابقتك وحسن أثرك فى الدين وأنت على حق فى ذلك ، ولكن أرأيت لو صُرف هذا الأمر عنك فلم تحضر ، من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق بالأمر ؟ ؟ فقال على : عثمان .

ولعله من الإنصاف أن نقرر هنا أن عثمان كان نبيل النفس كعلى لأنه اختاره للخلافة إذا تخطته ، فقد قال له عبد الرحمن بعد أن فاوض علياً : تقول شيخ من بنى عبد مناف ، وصهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى سابقة وفضل ، فلم يصرف هذا الأمر عنى؟ ولكن لو لم تحضر

فأى هؤلاء الرهط تراه أحق به ؟ فقال عثمان : علىّ . فههنا رجل يشهد له منافسه ، ويشهد لمنافسه ؛ وإنها لعظيمة من على ومن عثمان . وشهادة على لعثمان ترجح فى نظرنا رواية الطبرى أن علياً بايع عثمان بعد أن تخطته الخلافة . ثم إن عبد الرحمن خلا بالزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص فعلم منهما أنهما يختاران عثمان إذا تخطاهما الاختيار ، وروى أنهما اختارا علياً بعد ذلك ، ولعلهما تحققا بعد تفكير وبحث أن الإمام عليا سيكون فى سيرته أقرب إلى منهاج عمر من القوة والشدة فى الحق والبعد عن الانغماس فى الدنيا والاغترار بزينتها ، وأن عثمان فيه رقة ورأفة . وقد أخذت منه الشيخوخة مأخذها ، ومن كان كذلك كان أقرب إلى استكفاء غيره والركون إلى مشورة سواه .

ودار ابن عوف لياليه يشاور المهاجرين والأنصار وأصحاب رسول الله ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس يحاورهم ولا يخلو برجل منهم إلا قال عثمان .

على أنه كان من كتاب الوحى لرسول الله وكان لأبى بكر وعمر أميناً وكاتباً .

يرحم الله عثمان لقد كان ينبوعاً ثراً للخير، ولكن رنّق صفوَه حسّادُه وأعداء الإسلام : وكان على حظ عظيم من النبالة والكمال ولكن السياسة منذ كانت لا تصلح إلا بالختل والخديعة والقسوة على المخالفين فى الرأى ، فهو ضحية لينه ورقته وطيب قلبه وضعفه أولاً . وضحية النظام الاجتماعى فى عهده وتغير حال المسلمين ، ومهارة أعدائه وأعداء الإسلام ثانياً .

فهرس

١٩٤٤/٦/١/١٢٤٥